تصحيح أسس العقيدة
بتوضيح الأصول الثلاثة

ومعه إجازة روايةَ كتب الإمام النجدي من/

فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عبد الرقيب
ابن علي اليمني الكوكباني،
وفضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عادل بن
أحمد بن علي شيخ السعودي

تأليف الفقير إلى الله تعالى/

أبي فيروز عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي
الجاوي وفقه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تصحيح أساس العقيدة بتوضيح الأصول الثلاثة

الطبعة الأولى: ماليزيا، شهر محرم ١٤٣٩ هـ

الطبعة الثانية: ماليزيا، شهر رمضان ١٤٣٩ هـ

١٦٣ صفحة

مكتبة فيروز الديلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة إجازة رواية مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عبد الرقيب بين علي اليمني الكوكباني حفظه الله

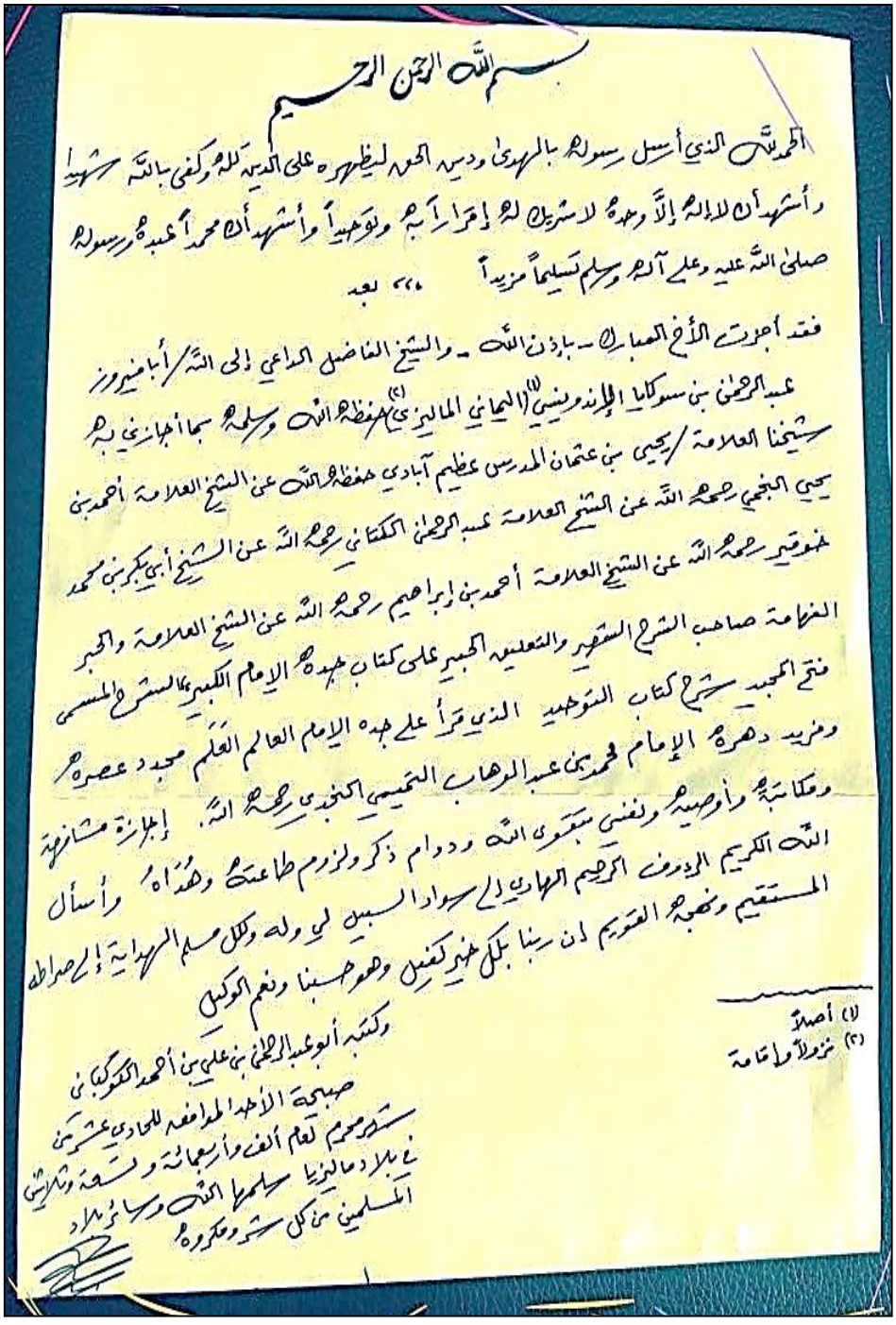

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارا به وتوحيدا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما مزيدا

أما بعد،،،

فقد أجزت الأخ الصالح - بإذن الله - والشيخ الفاضل الداعي إلى الله/ أبا مسرور عبد الرحمن بن سوكارنا الإندونيسي(١) اليماني الماليزي(٢) حفظه الله وسلمه بما أجازني به شيخنا العلامة/ يحيى بن عثمان المدرس عظيم آبادي حفظه الله عن الشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي رحمه الله عن الشيخ العلامة عبد الرحمن الكتاني رحمه الله عن الشيخ أبي بكر بن محمد نجم رحمه الله عن الشيخ العلامة أحمد بن إبراهيم رحمه الله عن الشيخ العلامة والحبر الفهامة صاحب الشرح المشهور والتعليقة الكبير على كتاب جده الإمام الكبير بالشرح المسمى فتح المجيد شرح كتاب التوحيد الذي قرأ على جده الإمام العالم العلم مجدد عصره ومزيد دهره الإمام محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي رحمه الله. إجازة مشافهة ومكاتبة وأوصيه ونفسي بتقوى الله ودوام ذكره ولزوم طاعته وهداه وأسأل الله الكريم الودود الرحيم الهادي إلى سواء السبيل لي وله ولكل مسلم الهداية إلى صراطه المستقيم ونهجه القويم إن ربنا بكل خير كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل

وكتبه أبو عبد الرحمن بن علي بن أحمد الكوكباني

صبيحة الأحد الموافقة للحادي عشر من شهر محرم لعام ألف وأربعمائة وستة وثلاثين في بلاد ماليزيا سلمها الله وسائر بلاد المسلمين من كل شر ومكروه

(١) أصلاً
(٢) مولداً وإقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

إجازة رواية مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عبد الرقيب بين علي اليمني الكوكباني حفظه الله

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مزيداً أما بعد:

فقد أجزت الأخ المبارك –بإذن الله– والشيخ الفاضل الداعي إلى الله/ أبا فيروز عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي[١] (اليماني الماليزي) [٢] حفظه الله وسلّمه بما أجازني به شيخنا العلامة / يحيى بن عثمان المدرس عظيم آبادي حفظه الله عن الشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي رحمه الله، عن الشيخ العلامة عبد الرحمن الكتاني رحمه الله، عن الشيخ أبي بكر بن محمد خوقير رحمه الله، عن الشيخ العلامة أحمد بن إبراهيم رحمه الله، عن الشيخ العلامة والحبر الفهّامة صاحب الشرح الشهير والتعليق الحبير على كتاب جدّه الإمام الكبير، الشرح المسمى "فتح المجيد شرح كتاب التوحيد"، الذي قرأ على جده الإمام العالم العلم مجدد عصره وفريد دهره/ الإمام محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي رحمه الله، إجازة مشافهة وكتابة.

وأوصيه ونفسي بتقوى الله ودوام ذكر ولزوم طاعته وهُداه. وأسأل الله الكريم الرءوف الرحيم الهادي إلى سواء السبيل لي وله ولكل مسلم الهداية إلى صراطه المستقيم ونهجه القويم. إن ربنا بكل خير كفيل. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

[١] أصلاً.

[٢] نزولاً وإقامة.

وكتبه أبو عبد الرحمن عبد الرقيب بن علي بن أحمد الكوكباني

صبيحه الأحد الموافق للحادي عشر من شهر محرم لعام ألف وأربعمائة وتسعة وثلاثين

في بلاد ماليزيا سلمها الله وسائر بلاد المسلمين من كل شر ومكروه.

صورة إجازة مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عادل بن أحمد بن علي شيخ –نزيل جازن- حفظه الله

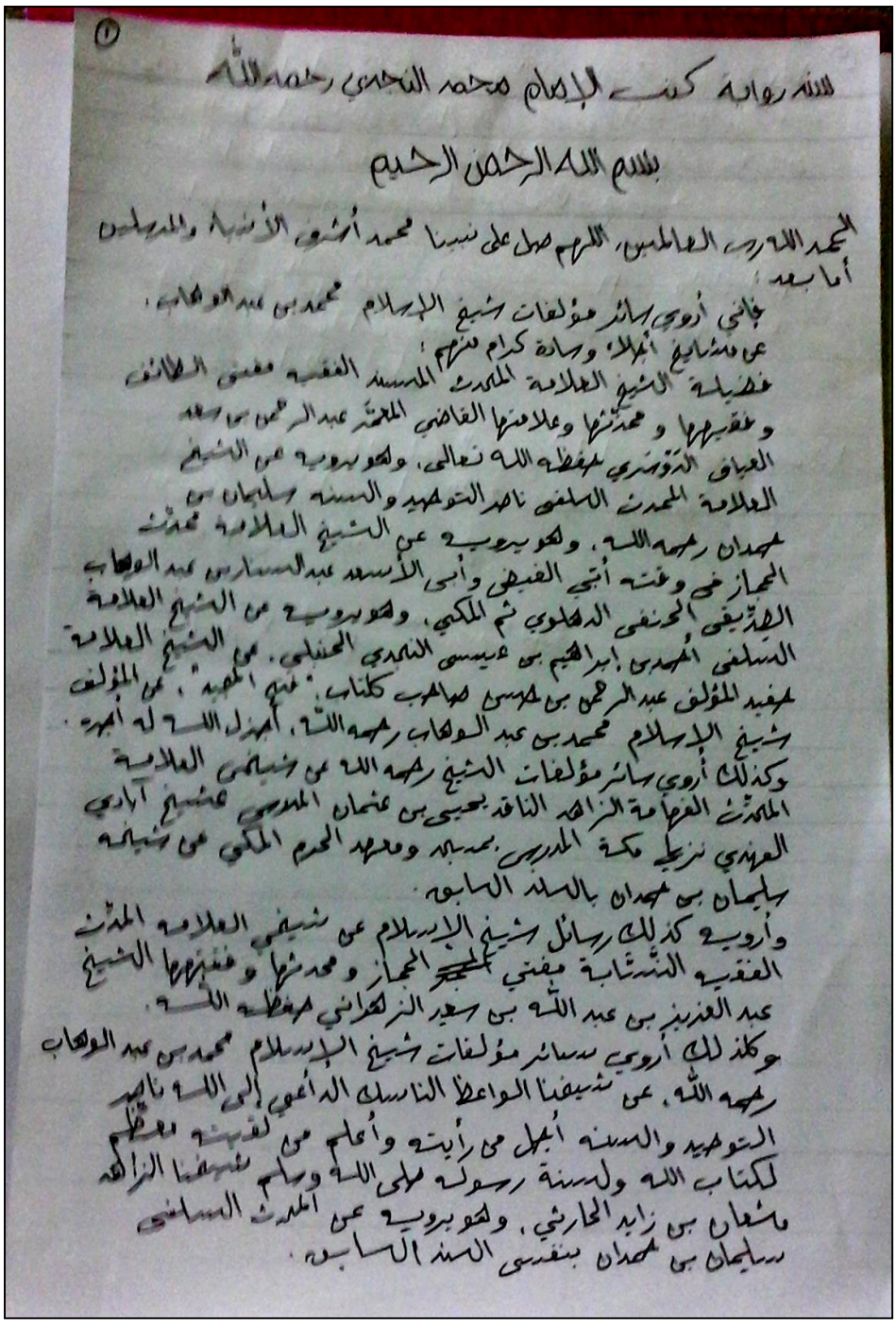

١

الله رواية كتب الإمام محمد النجدي رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على نبينا محمد أشرف الأنبياء والمرسلين

أما بعد:

فإني أروي سائر مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب،

عن مشايخ أجلاء وسادة كرام منهم المسند الفقيه مفتي الطائف

فضيلة الشيخ العلامة المحدث المؤرخ عبد الرحمن بن حسن

وفقيهها و محدثها وعلامتها القاضي المحدث عبد الرحمن بن حمد

العياف الدوسري حفظه الله تعالى، ولهو يرويه عن الشيخ

العلامة المحدث السلفي ناصر التوحيد والسنة سليمان بن

محمد بن سحمان رحمه الله، ولهو يرويه عن الشيخ العلامة المحدث

الحجاز فخ وعنه أبي الفيض وأبي الأسعد عبد الستار بن عبد الوهاب

الصديقي الحنفي الدهلوي ثم المكي، ولهو يرويه عن الشيخ العلامة

السلفي المحدث إبراهيم بن عيسى التادفي الحنبلي، عن المؤلف

صفيه المؤلف عبد الرحمن بن حسن صاحب كتاب "فتح المجيد"، عن المؤلف

شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، أنزله الله له أجمعين.

وكذلك أروي سائر مؤلفات الشيخ رحمه الله عن شيخي العلامة

المحدث الفهامة الزاهد الناقد يحيى بن عثمان المدرس شيخ آبادي

العنزي نزيل مكة المدرس بمسجد ومعهد الحرم المكي عن شيخه

سليمان بن سحمان بالسند السابق.

وأروي كذلك رسائل شيخ الإسلام عن شيخي العلامة المحدث

الفقيه النشابة مفتي الحجاز ومحدثها وفقيهها الشيخ

عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد الزراعي حفظه الله.

وكذلك أروي سائر مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله، عن شيخنا الواعظ الناسك الداعي إلى الله ناصر

التوحيد والسنة أجل من رأيته وأعلم من لقيته معظم

لكتاب الله ولسنة رسوله صلى الله وسلم شيخنا الزاهد

مشعان بن زايد الحارثي، ولهو يرويه عن المحدث السلفي

سليمان بن سحمان بنفس السند السابق.

(٣) وأروي أيضا سائر مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ما بين قراءة وسماع بقراءة غيري وقراءة شيخي المحدث مسند الحجاز صالح بن محمد بن عبد الله العصيمي، وهو يرويه عن إسماعيل بن محمد عبد الرحمن بن حمدان آل الشيخ به.

ولهذا والله الحمد والمنة أعلى سند إلى رسائل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فبيني وبين المصنف رحمه الله ست وسائط أو أقل.

أجزت برهذا السند فضيلة الشيخ الجليل عبد الرحمن بن سوكيا الأندونيسي الجاوي سلمه الله من حوادث الزمن / كتب ذلك عادل بن محمد علي شيخ

بتاريخ ٧ المحرم ١٤٣٩ من الهجرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إجازة مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عادل بن أحمد بن علي شيخ –نزيل جازن- حفظه الله

الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على نبينا محمد أشرف الأنبياء والمرسلين أما بعد:

فإني أروي سائر مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، عن مشايخ أجلاء وسادة كرام منهم: فضيلة الشيخ العلامة المحدث المسند الفقيه مفتي الطائف وفقيهها ومحدِّثها وعلامتها القاضي المعمَّر عبد الرحمن بن سعد العياف الدَوْسَري حفظه الله تعالى، وهو يرويه عن الشيخ العلامة المحدث السلفي ناصر التوحيد والسنة سليمان بن حمدان رحمه الله، وهو يرويه عن الشيخ العلامة محدِّث الحجاز في وقته أبي الفيض وأبي الأسعد عبد الستار بن عبد الوهاب الصِدِّيقي الحنفي الدهلوي ثم المكي، وهو يرويه عن الشيخ العلامة السلفي أحمد بن إبراهيم بن عيسى النجدي الحنبلي، عن الشيخ العلامة حفيد المؤلف عبد الرحمن بن حسن صاحب كتاب"فتح المجيد"، عن المؤلف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، أجزل الله له أجره.

وكذلك أروي سائر مؤلفات الشيخ رحمه الله عن شيخي العلامة المحدِّث الفهّامة الزاهد الناقد يحيى بن عثمان المدرِّس عظيم آبادي الهندي نزيل مكة المدرس بمسجد ومعهد الحرم المكي، عن شيخه سليمان بن حمدان بالسند السابق.

وأرويه كذلك رسائل شيخ الإسلام عن شيخي العلامة المحدِّث الفقيه النَّسَّابة مفتي الحجاز ومحدثها وفقيهها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد الزهراني حفظه الله.

وكذلك أروي سائر مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، عن شيخنا الواعظ الناسك الداعي إلى الله ناصر التوحيد والسنة أجلّ من رأيته وأعلم من لقيته معظِّم لكتاب الله ولسنة

رسوله ﷺ شيخنا الزاهد مشعان بن زايد الحارثي، وهو يرويه عن المحدث السلفي سليمان بن حمدان بنفس السند السابق.

وأروي أيضا سائر مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ما بين قراءة وسماع بقراءة غيري وقراءة شيخي المحدث مسند الحجاز صالح بن حمد بن عبد الله العصيمي، وهو يرويه عن إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ به.

وهذا ولله الحمد والمنة أعلى سند إلى رسائل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فبيني وبين المصنف رحمه الله ستّ وسائط أو أقلّ.

أجزت بهذا السند فضيلة الشيخ الجليل عبد الرحمن بن سوكايا الإندونيسي الجاوي سلمه الله من حوادث الزمن.

كتب ذلك:

عادل بن أحمد علي شيخ

بتاريخ ٧ المحرم ١٤٣٩ من الهجرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح وفقه الله

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله أجمعين أما بعد:

فقد تظاهرت الدلائل على فناء الدنيا، وأن جميع الإنسان سينتقلون إلى القبر، وهو أول منازل الآخرة، فيمتحن امتحانًا شديدًا، فمن نجا منه فيا بشراه. وعن هانئ مولى عثمان قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ فقيل له: تذكر الجنّة والنّار فلا تبْكي وتبْكي مِنْ هَذَا، فَقَالَ: إِنَّ رَسُول الله -ﷺ- قَالَ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**». قال: وقال رسول الله -ﷺ-: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ** ». (أخرجه الترمذي (٢٤٧٨)، وحسنه الإمام الألباني في "مشكاة المصابيح" رقم (١٣٢)، والإمام الوادعي رحمهما الله في "الصحيح المسند" (٩٠٩)).

وفتنة القبور تدور حول الأمور الثلاثة: من ربك، وما دينك، ومن الذي أرسلك إليك. فمن نجا من هذه الفتنة «**ينادي له مناد من السماء أن: قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة وألبسوه من الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفتح له فيها مد بصره**». ومن لم ينج منها «**ينادي له مناد من السماء أن: كذب عبدي، فأفرشوه من النار وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها. ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه**». (أخرجه أبو داود (٤٧٥٥) وحسنه الإمام الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين"/ (٥١٥)).

فمن أجل أهمية هذه الأسئلة الثلاثة كتب الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله رسالة **"الأصول الثلاثة"** نصيحة لهذه الأمة. وقد استجاب الموفَّقون منهم لذلك فأقبلوا على هذه الرسالة

المهمة إقبالًا عجيبًا –ولا يبارك الله لعمل إلا ما كان مخلصاً له ومتبعاً لرسوله–. فأُحبّ مشاركة هذا العمل المبارك بشرح هذه الرسالة وتخريج أحاديثها بما يسّر الله لي. وعسا الله أن يوفقني على ذلك.

وقد كان فضيلة الشيخين أبو عمرو عبد الكريم بن أحمد اليمني الحجوري وأبو عبد الله محمد بن حزام اليمني البعداني –حفظهما الله– يبذلان جهودهما المباركة على مراجعة تحقيقي وتعليقي على متن الأصول الثلاثة. وقد أثبتُّ تقديماتهما في الطبعة الثانية من التحقيق والتعليق على هذا المتن.

وأما في هذا الشرح الموسع اخترت تثبيت إجازة جديدة لرواية مؤلفات الإمام محمد النجدي رحمه الله من فضيلة الشيخين أبي عبد الرحمن عادل بن أحمد علي الشيخ –نزيل جيزان–، وأبي عبد الرحمن عبد الرقيب بن علي اليمني الكوكباني حفظهما الله.

وأشكر –بعد الله تعالى– لهم جميعاً على نصرتهم وتأييدهم على هذا العمل، وأسأل الله تعالى أن يفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وأن يعلي قدرهم في الدارين.

الباب الأول: نبذة من ترجمة الإمام محمد النجدي رحمه الله

هو الإمام المجدد السلفي أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي النجدي. ولد في مدينة العيينة تاريخ ١١١٥ هـ. وهب الله له صفاء الذهن، وقوة الذكاء، وحدّة الإدراك، وسرعة الحفظ، نشأ بين ظهراني أسرة القضاء والعلم والفقه. حفظ القرآن قبل بلوغ عشر سنين، ثم قرأ مبادئ الصرف، والنحو، وبعض كتب الفقه، والحديث والتفسير. ثم تتلمذ عند الشيخ عبد الرحمن بن أحمد من أهل بريدة.

ثم رحل إلى القصيم يأخذ العلم عند الشيخ حسان التميمي، ثم إلى مكة وأخذ عن علمائها، ثم إلى المدينة وأخذ عن علمائها، منهم الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن يوسف آل السيف. ثم رجع عند أبيه في العيينة. ثم التقى بالشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي بإحساء، ثم رحل إلى البصرة يدرس عند الشيخ محمد المجموعي. وأذاه بعض الجهلة لقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعاد إلى نجد، فسكن (حريملاء) وكان أبوه قاضيهًا بعد العيينة. ثم انتقل إلى العيينة، ناهجًا منهج السلف الصالح، داعيًا إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع. وارتاح أمير العيينة عثمان بن حمد بن معمر إلى دعوته فناصره، ثم خذله، فقصد الدرعية (بنجد) سنة ١١٥٧ هـ، فتلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام، وقبل دعوته، وآزره كما آزره من بعده ابنه عبد العزيز ثم سعود بن عبد العزيز.

وتأثّر بدعوته رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها. وسمّاهم خصومهم بالوهابيين -افتراء وزوراً وصدّاً عن سبيل الله- وشاع ذلك التلقيب عند الأوربيين فدخل معجماتهم الحديثة، بل زاد بعضهم الخطأ فجعله مذهبًا جديدًا في الإسلام، تبعًا لما افتراه خصومه.

وله مصنفات منها (كتاب التوحيد)، ورسالة (كشف الشبهات)، و(تفسير الفاتحة)، و(أصول الايمان)، و(تفسير شهادة أن لا إله إلا الله)، و(معرفة العبد ربه ودينه ونبيه)، و(مسائل الجاهلية)، و(فضل الاسلام)، و(نصيحة المسلمين)، و(معنى الكلمة الطيبة)، و(الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر)، و(مجموعة خطب)، و(مفيد المستفيد)، و(رسالة في أن التقليد جائز لا واجب)، و(كتاب الكبائر)، وأكثر هذه الكتب مطبوع متداول، رحم الله كاتبها، ونفع بها الإسلام والمسلمين، وقد فعل، والحمد لله.

وكانت وفاته في (الدرعية) سنة ١٢٠٦ هـ. وحفداؤه اليوم يعرفون ببيت (الشيخ) ولهم مقام رفيع عند آل سعود.

راجع "الأعلام" (للزركلي ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي / ٦/ ص ٢٥٧) وغير ذلك.

الباب الثاني: شرح الأصول الثلاثة

[أهمية البسملة]

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، و به نستعين**).

الشرح:

إن من آداب العبد العظيمة مع ربه عز وجل: التسمية قبل الشروع في العمل الخير.

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير بداية سورة العلق: إن الله تعالى ذكره وتقدَّست أسماؤه أدّب نبيه محمدًا ﷺ بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقدَّم إليه في وَصفه بها قبل جميع مُهِمَّاته، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلَّمه إياه، منه لجميع خلقه سُنَّةً يستَنُّون بها، وسبيلا يتَّبعونه عليها، فبه افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: "بسم الله"، على من بطن من مراده الذي هو محذوف. ("جامع البيان"/ ١/ ص٥٠/ ط. المكتبة التجارية).

وتقديم البسملة على جميع الأعمال للتبرك ومخالفة المشركين. قال العلامة الكيا الهراسي الشافعي رحمه الله: والفوائد التي ينتظمها قوله «بسم الله»: الأمر باستفتاح الأمور بها تبركاً بذلك –إلى قوله:– وفيه إظهار مخالفة المشركين الذين يفتتحون أمورهم بذكر الأصنام أو غيرها من المخلوقين، ...إلخ. ("أحكام القرآن"/ له/ ١/ ٤–٥/ ط. دار الكتب العلمية).

و(باسم الله) جار ومجرور متعلق بفعل محذوف بقديره هنا: (أكتب). جاز تقديم هذا الفعل، وجاز تأخيره. وتأخيره أفضل لتقوية الدلالة على التبرك باسم الله. قال الإمام الشوكاني رحمه الله: ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص، مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم ، والإشارة إلى أن البداية به أهمّ ، لكون التبرّك حصل به، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام. ("فتح القدير"/ ١/ ص٨٠/ دار الوفاء).

وقال الماوردي رحمه الله: الاسم: كلمة تدل على المسمى دلالة إشارة اهـ. ("النكت والعيون"/ ١/ ص ٤٨/ مكتبة المؤيد).

لفظ الجلالة (الله) أصله من (الإله). والإله هو المألوه أي: المعبود، فلا أحد يستحق أن يُعبد إلا الله سبحانه. قال شيخ الإسلام رحمه الله: الإله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما. ("مجموع الفتاوى"/ ١ / ص ٢٢).

وقال العلامة الهراسي رحمه الله: وفيه اسمان من أسماء الله تعالى لا يسمى بهما غيره: وهو الله والرحمن، وهو –يعني: الله– أشهر أسماء الله تعالى، الذي ينسب إليه كل اسم، فيقال: الرؤوف والكريم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الكريم. ("أحكام القرآن"/ له/ ١/ ٥/ ط. دار الكتب العلمية).

والاسمان (الرحمن الرحيم) مشتقان من الرحمة. فالرحمن بمعنى: الذي لا يزال متصفا بالرحمة الواسعة، وهذا يرجع إلى الصفة الذاتية. وأما الرحيم بمعنى: الذي يرحم من يشاء من عباده. وهو يرجع إلى الصفة الفعلية لتعلقه بمشيئة الله. قال الإمام الشوكاني رحمه الله: قال أبو عليّ الفارسيّ : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو : في جهة المؤمنين ، قال الله تعالى: ﴿**وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً**﴾ [الأحزاب : ٤٣]. ("فتح القدير"/ ١/ ص٨١/ دار الوفاء).

وقول المؤلف رحمه الله: (**وبه نستعين**) يعتبر تكراراً للاستعانة توكيداً لإظهار توكل العبد على الله تعالى، واستعانته به، وأن العبد لا يمكن أن يعبد ربه كما ينبغي إلا بإعانته. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله. وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه. وكذلك الاستنصار، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**﴾ [الأنفال/ ٧٢]. والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو. ولا يقدر عليه إلا الله. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ١١٣).

وهذا الاستعانة امتثالٌ بالنبي ﷺ. عن ابن عباس رضي الله عنه: ... فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد**». الحديث (أخرجه مسلم (٨٦٨)).

[وجوب تعلم أربع مسائل]

قول المؤلف رحمه الله: (**اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللهُ- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ**)

الشرح:

قوله رحمه الله: (**اعلم**) أمر بمعرفة ما سيذكره، وهو أمر مهمّ لأنه يتعلق بسعادة الإنسان في دنياه وأخراه. وطبيعة الإنسان الحرص على ما ينفعه ودفع ما يضره. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٥٥).

ولا يعرف الإنسان ما ينفعه وما يضره إلا بالعلم، فحاجة الإنسان إلى العلم أعظم من حاجته إلى الأمور الدنيوية. قال الإمام ابن القيم رحمه الله في شرح حديث أبي موسى رضي الله عنه: وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث. قال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص ٦١).

وقوله: (**رحمك الله**) فيه دعاء المؤلف –رحمه الله– للقارئ ليرحمه الله. والرحمة ترجع إلى معنى الفضل والإنعام. قال الإمام القرطبي رحمه الله: ورحمة الله لعباده: إنعامه عليهم وعفوه لهم. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ٢ / ص ٦١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: ورحمته اسم جامع لكل خير. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ٦٢).

فمن قال لك: (رحمك الله) فقد دعا الله أن يحسن إليك، وينعم عليك، ويكشف عنك الضرر، ونحو ذلك. قال شيخ الإسلام رحمه الله: أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضا على الرحمة. ("مجموع الفتاوى"/ ١٣ / ص ٢٩٩).

وقوله: (**أربع مسائل**): هذه المسائل الأربع هي الإيمان المبني على العلم، والعمل الصالح، والدعوة إلى الحق، والصبر على ذلك. وها شروط الخلوص من الخسارة الحقيقية، كما سيأتي في سورة عصر. قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: فإن الله تعالى أخبر أن جميع الناس خاسرون، إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً، ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٨/ ص ١٥٢).

قول المؤلف رحمه الله: (الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ الله، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ).

الشرح:

العلم هو معرفة الشيء على حقيقته معرفة جازمة. قال الإمام الصنعاني رحمه الله: **فالعلم هو المعنى الذي اقتضى سكون النفس بما علمته**، وهو الذي يعبرون عنه بأنه التصديق **الجازم المطابق** مع سكون النفس. ("إجابة السائل شرح بغية الآمل"/ ١/ ص٣٣).

ولا يكون الجزم على شيء مع طمأنينة القلب على ذلك إلا إذا بنيت تلك المعرفة على دليل قوي. قال شيخ الإسلام رحمه الله: **أن العلم ما قام عليه الدليل. والنافع منه ما جاء به الرسول**. فالشأن في أن نقول علما وهو النقل المصدق، والبحث المحقق. ("مجموع الفتاوى"/ ٦/ ص ٣٨٨).

من أجل ذلك قال المؤلف رحمه الله: **(بالأدلة)**. والأدلة جمع دليل، وهو المرشد إلى المطلوب. ("اللمع في أصول الفقه"/ للشيرازي/ ص ٣).

والعلم المطلق المذكور في القرآن والسنة هو العلم الشرعي، وهو مأخوذ من الكتاب والسنة نصاً أو استنباطاً. قال الإمام اللالكائي رحمه الله: فإن أوجب ما على المرء: معرفة اعتقاد الدين ، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين ، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين. ("شرح أصول الاعتقاد"/ ١/ ص٢).

والعلم الشرعي يدور حول العلم بالله، وبالنبي ﷺ، وبهذا الدين. وذلك لا ينال إلا بمعرفة الكتاب والسنة. قال الإمام اللالكائي رحمه الله: وكان من أعظم منقول، وأوضح حجة ومعقول: كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين. ("شرح أصول الاعتقاد"/ ١/ ص٢).

قوله: (**الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ**).

الشرح:

قوله: (**والعمل به**) العمل بالعلم واجب. فمن لم يعمل بمقتضى علمه، فإنه آثم. قال الله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف/ ١٧٥، ١٧٦].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه. وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمة وذلك من وجوه أحدها: أنه ضلّ بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدا ولا جهلا. وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها. ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها... إلخ ("الفوائد"/ ص١٠١).

وقوله سبحانه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الجمعة/ ٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملا حسيا، ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظا ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال هاهنا: ﴿**بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص١١٧).

قوله: (**الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ**).

الشرح:

إن دعوة الناس إلى الله، إلى اتباع الحق من أعظم الأعمال. قال تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ [آل عمران/ ١١٠]. وقال سبحانه: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف/ ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت/ ٣٣].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله ، وعمل عملاً صالحاً ، وهو : تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه ، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه ، ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله. ("فتح القدير"/ ٦/ ص ٣٥٤).

والداعي إلى الله له أجر جهده في نشر الحق، وأجور عظيمة باتباع الناس دعوته. قال النبي ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**». (أخرجه مسلم (٦٩٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه).

الرَّابِعَةُ: (الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ).

الشرح:

لا تقوم العبادات إلا على ساق الصبر لثقلها ولكثرة العوائق عليها. قال الله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**﴾ [الإنسان: ٢٤].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وحكم الله نوعان : خلق، وأمر. فالأول: ما يقدره من المصائب. والثاني : ما يأمر به وينهى عنه. والعبد مأمور بالصبر على هذا وعلى هذا، فعليه أن يصبر لما أمر به، ولما نهى عنه، فيفعل المأمور، ويترك المحظور، وعليه أن يصبر لما قدره الله عليه. ("مجموع الفتاوى"/ ٨/ ص٣٢٥).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما. ("عدة الصابرين" / ص٣٣/ دار ابن الجوزي).

والصبر عبادة عظيمة المنقبة في الدين. قال شيخ الإسلام رحمه الله: كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه. وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعا. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ٣٩).

وقد ذكرت بتوفيق الله بعض فضائل الصبر في "شرح القواعد الأربع". وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه كما لا تستوى السنبلة إلا على ساقها. فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور. ("عدة الصابرين" / ص ١٩).

وقال رحمه الله: ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر. فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة أعني اسم الصبر لما تخلف عنه. قال النبي ﷺ: «**ما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر**»[٣]. ("طريق الهجرتين" / ص ٤٠١).

ولا بد للداعي إلى الله أن يتحلى بالصبر لأنه واجب، وأنه من أسباب النصر. قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال الله سبحانه: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة: ٢٤٩].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والصبر منصور أبداً. ("إعلام الموقعين"/ ٢/ ص ١٧٨).

فليصبر الداعي إلى الله على التعب، وعلى أذية الأعداء، وعلى قلة آداب تلاميذه المستجيبين، وعلى غير ذلك مما وُجد في سبيل الدعوة. قال الإمام ابن مفلح رحمه الله: فينبغي للمشايخ الإحسان إليهم، والصبر على ما يكون منهم واللطف بهم، لئلا يتضاعف ألمهم وهمهم، فيضعف الصبر، وتحصل النفرة عن العلم، واستحباب ذلك من الطلبة أولى بهم والأدب والتلطف وما يعينهم على المقصود. وقد قال تعالى: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة**﴾. وفي "الصحيحين" من حديث أنس: «**بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا**». (انتهى من "الآداب الشرعية"/ ص٢٨٣).

---

[٣] أخرجه البخاري (١٤٦٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[الدليل على أربع المسائل وتفسيره]

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**

الشرح:

الابتداء بالتسمية من هدي النبي ﷺ. عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أنزلت عليّ آنفا سورة**». فقرأ: «**بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾**». (أخرجه مسلم (٤٠٠)).

قوله: ﴿**والعصر**﴾ هو: مرور الليالي والنهار. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٤٨٠).

وفي إقسام الله تعالى بهذا العصر تنبيه مهم. قال الإمام القرطبي رحمه الله: ... لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع. ("الجامع"/ ٢٠/ ص ١٧٩).

وقوله: ﴿**إن الإنسان**﴾ حرف (إنّ) لتوكيد الكلام. و(الإنسان) أل الاستغراقية شاملة لجميع أفراد عموم الإنسان. أي: جميع الإنسان وسائر الناس. وقوله: ﴿**لفي خسر**﴾ اللام مزحلقة، للتوكيد. والخسران هو كما قاله الإمام البغوي رحمه الله: و "الخسران": ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله. ("معالم التنزيل" / ٨/ ص ٥٢٢).

وقوله: ﴿**إلا الذين آمنوا**﴾ استثناء عن العموم، إخراج ما سيذكره من عموم الناس الخاسرين. واستدل المؤلف رحمه الله بقول الله: ﴿**الذين آمنوا**﴾ على أهمية العلم الشرعي، ذلك لأن العلم شرط لصحة الإيمان، ويزداد الإيمان بزيادة هذا العلم. قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾

[الأنفال/ ٢]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة/ ١٢٤].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فمن شرط الإيمان وجود العلم التام. ("مجموع الفتاوى" / ٧/ ص ٥٣٨).

وقال الإمام الآجري رحمه الله: وكل فرض من شريعة الإسلام لا يؤديه إلا بعلم. ("الأربعون حديثا"/ للآجري / ص ١٩).

ثم إن العلم –وكذلك العمل– مادة الإيمان، لا يقوم الإيمان إلا بهما. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فأن الإيمان فرض على كل واحد، وهو ماهية مركبة من علم وعمل، فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل. ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم، ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص ١٥٦).

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، قال الإمام الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضا بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه، من أمره، واجتناب ما نهى عنه فيه. ("جامع البيان"/ ٢٤/ ص ٥٩٠).

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبرِ﴾ قد مر بنا الكلام عليه.

واجتماع هذه الأمور الأربعة –الإيمان، والعمل الصالح، والدعوة، والصبر– هو مفتاح النجاة والفلاح. والخسارة حاصلة بفقد خصلة منها. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة على أن كل واحد في خسر، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالعمل بطاعته. فهذا كماله في نفسه. ثم كمل غيره بوصيته له بذلك وأمره إياه به، وبملاك ذلك وهو الصبر. فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك ووصيته له بالصبر عليه. ("إغاثة اللهفان"/ الباب الرابع/ ١/ ص ٢٥).

قال المؤلف رحمه الله: **(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: هذه السورة لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هي لكفتهم)**.

الشرح:

الشافعي هو إمام من أئمة أهل السنة، محمد بن إدريس بن العباس، ناصر الحديث، أبو عبد الله القرشي ثم المطلبي الشافعي. وكان من أشعر الناس، وأعلمهم بالقراءات، والفقه، وكان متبحراً في الحديث. ومن أقواله: **لأن يلقى الله العبد بكل ذنب إلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الأهواء.** وسئل الشافعي عن القرآن ؟ فقال: **أف أف، القرآن كلام الله، من قال: مخلوق، فقد كفر**. توفي رحمه الله سنة أربع ومئتين. ("سير أعلام النبلاء" / ١٠/ ص ٥ وما بعدها/ الرسالة).

أما قوله رحمه الله: **(هذه السورة لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هي لكفتهم)** لم أجد له سنداً، وقد قبله الأئمة قبولاً حسناً. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: لو فكر الناس كلهم في سورة ﴿**والعصر**﴾ لكفتهم، وهو كما قال. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٨ / ص ١٥٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولهذا قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس في سورة: ﴿**والعصر**﴾ لكفتهم. ("إغاثة اللهفان"/ الباب الرابع/ ص ٢٥).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٤٧٩).

ومعنى هذا الكلام: أن الناس لو تدبروا هذه السورة، وتأملوا فيها لعلموا أن فيها تخويفا بالخسارة المحققة التي تعمّ جميع البشر، ففيها تحذيرا من البقاء فيما تفر منه طبيعتهم وفطرتهم. ثم بينت لهم أن الناجي منها هو الذي يتحلى بتلك الخصال الأربع. فهذه السورة إغراء لهم على السعي في الخلوص من تلك الخسارة.

قال ابن القيم رحمه الله: فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هاديا إلى كل خير. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص ٥٧).

فما أحسن قول الشافعي رحمه الله في تنبيهه على عظم هذه السورة، ولكن أكثر الناس في غفلة. قال رحمه الله: الناس في غفلة عن هذه السورة: ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ**﴾ [العصر: ١، ٢]. (ذكره الإمام النووي رحمه الله في "تهذيب الأسماء واللغات"/ ١/ ص ٧٨).

[أهمية العلم قبل القول والعمل]

قول المؤلف رحمه الله: (**وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: بَابُ العِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ**)؛

الشرح:

البخاري هو أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم أبو عبد الله البخاري، صاحب كتاب "صحيح البخاري"، أصح الكتب المصنفة، وبعض كتب أُخر. وقال ابن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ ولا أحفظ له من البخاري. وتوفي رحمه الله في سنة ٢٥٦ في شوال. ("تهذيب التهذيب" / ٣/ ص ٥٠٨-٥١٠/ الرسالة).

إن أعمال الإنسان –القلبية والقولية والفعلية– جملة تدور حول جلب المصالح ودفع المضار، سواء كانت دنيوية أو أخروية. فلا بد من العلم لتفريق بين ما ينفعه وما يضره، والعلم يهديه إلى ما يرضي الله وما لا يرضيه. فبهذا البيان تعيّن تقديم العلم قبل العمل. قال شيخ الإسلام رحمه الله: لا بد أن يفرق بين ما ينفعه، وينعمه، ويسره، وبين ما يضره، ويشقيه، ويؤلمه. وهذا حقيقة الأمر والنهي، فإن الله تعالى أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم. ("مجموع الفتاوى"/ ٨/ ص ١٠٧).

فالعلم مقدم على العمل. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له، ومؤتم به. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص١٠٤).

ثم استدل الإمام البخاري رحمه الله على تقديم العلم قبل القول والعمل بقول الله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾، قدّم قوله: ﴿**فَاعْلَمْ**﴾ على قوله: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾.

ومعنى الآية كما قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : فاعلم يا محمد، أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء. ("جامع البيان"/ ٢٢ / ص ١٧٣).

ومعنى قوله: (**فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ**): قال ابن المنير : أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل. ("فتح الباري" لابن حجر / ١/ ص ١٠٨).

[وجوب تعلّم ثلاث مسائل والعمل بهن]

قوله رحمه الله: (**اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللهُ- أن الله أوجب عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ: الأُولَى:أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا**)،

الشرح:

قوله (**أن الله أوجب عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ**) يدل على أن الشريعة الإسلامية شاملة للرجال والنساء، إلا ما خص الدليل على أحد الصنفين. فمن أطاع الله ورسوله من ذكر أو أنثى فلا كفران لسعيه. قال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾ [آل عمران/ ١٩٥] وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ [النساء/ ١٢٤].

ولا يمكن لهم أن يطيعوا الله ورسوله ﷺ إلا بالعلم، فلا بد من طلبه والسعي في تحصيله، وعدم البقاء على الجهل. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص ١٥٦).

فطلب هذا العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. أول ما يجب عليهم علمه هو أن الله خالق جميع العالم، وأنه ذو صفات الكمال. وهذا مستقر في قلوبهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق، فإنهم مفطورون على أنه أجلّ وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء، وقد بينا في غير هذا الموضع أن الإقرار بالخالق وكماله يكون فطرياً ضرورياً في حق من سلمت فطرته. ("مجموع الفتاوى"/ ٦/ ص ٧٢-٧٣).

وخالق كل شيء هو الذي يتولى رزقهم، فهو المستحق أن يُعبد. قال الله تعالى: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر/ ٣]. وقال سبحانه: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الروم/ ٤٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿**لا إله إلا هو فأنى تؤفكون**﴾، أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟ ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦/ ص٥٣٣).

والرِزْقُ: ما يُنْتَفَعُ به والجمع الأرْزاقُ. والرِزْقُ العطاء. ("الصحاح في اللغة"/ ١/ ص٢٥٢).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً، بل أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾** [المزمل/ ١٥-١٦]).

الشرح:

خلق الله تعالى المخلوق لا للإهمال، بل ليعبدوه لا شريك له. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولم يخلقهما باطلاً ولم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يتركه سدى مهملا قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [**المؤمنون/ ١١٥**] أي لغير شيء ولا حكمة ولا لعبادتي ومجازاتي لكم؟ وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾، فالعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال الله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾ [القيامة/ ٣٦] أي مهملا. ("مدارج السالكين"/ ١ / ص ٩٨).

وقول المؤلف رحمه الله: (**أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً**) فيه تنبيه على أن حكمة الله تعالى في خلق العالمين تقتضي إرسال الأنبياء والمرسلين لتبليغ أوامره التي فيها منافع للناس ومصالحهم إذا أطاعوهم، ونواهيه التي فيها ما يضرهم ويفسدهم إذا عصوهم بارتكابها. فمن لم يتبع هدي المرسلين فإنه قد سفه نفسه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم، وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين. والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل. والعقل يتضمن العلم والعمل. فمن عرف الخير والشر فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلا. ولهذا لا يعدّ عاقلا إلا من فعل ما ينفعه واجتنب ما يضره. فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقي نفسه في المهالك، وقد يفرّ مما ينفعه. ("مجموع الفتاوى"/ ١٥/ ص ١٠٨).

فمن أجل ذلك وصف الله الكافرين بأنهم لا يعقلون بعصيانهم المرسلين. ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة/ ١٧١].

فأعقل الناس وأسعدهم هم المتبعون للرسل عليهم السلام. وافترض الله طاعة الرسول لمصالحهم أنفسهم، لا لحاجة الله إليهم. قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الله سبحانه غني حميد كريم واحد رحيم، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحساناً اهـ. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٢٩).

وقال رحمه الله: والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده. فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فان الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره. والشرع هو النور الذى يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنا. ("مجموع الفتاوى"/ ١٩/ ص ٩٩).

وقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**﴾ [المزمل/ ١٥-١٦] دليل على خسران من عصى الرسول.

فبيّن الله تعالى بهذه الآية أن مجيء رسول إلى أمة من الأمم ليس غريباً. ذلك لأن من تمام ربوبية الله تمام الرعاية لعباده. ومن تمام الرعاية إرسال الرسل إليهم يهدونهم إلى صراط الله المستقيم، ويخبرونهم ما يجب عليهم من حق الله عليهم. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: كونه رب العالمين فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملا لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما فهذا هضم للربوبية ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به وما قدره حق قدره من نسبه إليه. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص٨).

وإرسال الله تعالى محمدا ﷺ إلى هذه الأمة هو كإرسال موسى إلى فرعون وبني إسرائيل. فكما أن من عصى موسى عليه السلام هلك، فكذلك من عصى محمداً ﷺ. فالتشابه في الفعل يستلزم التشابه في الحكم. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿**فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى**﴾ [النازعات: ٢٥] وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٢٥٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**الثَّانِيَةُ: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ المساجد لله فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً﴾** [الجن: ١٨]).

الشرح:

قوله رحمه الله: (**الثانية**) أي: الثانية من ثلاث الأمور التي تجب علينا معرفتهن والعمل بهن . وقوله: (**أن الله لا يرضى أن يشرك** ... إلخ) فيه إثبات صفة الرضى لله تعالى. والله يرضى عن المؤمنين ولا يرضى عن الكافرين. قال تعالى: ﴿**وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر/ ٧].

والله لا يرضى عن الفسوق. قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ الله لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة/ ٩٦]. وأعظم الفسوق الشرك، فمقت الله في ذلك أعظم. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ –إلى قول:– ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ الله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**﴾ [غافر/ ١٠-١٢].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبرًا عن الكفار: أنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم في غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم به نداء بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. ("تفسير القرآن العظيم" / ٧/ ص ١٣٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضى لكم ويكره لكم ثلاثا: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال**». (أخرجه مسلم (٤٤٨١) بهذا اللفظ).

فمن علم أن الله يمقت الكفر والشرك ولا يرضى عنهما، فليجتنبهما وليلزم الإيمان والتوحيد.

وقوله: (**لا ملك مقرب ولا نبي مرسل**) إذا كان الله لا يرضى أن يشرك بأحد من الملائكة والنبيين، فكيف بمن هو أدنى؟ بل لا يمكن أن يأمر نبي ولا ملك بالشرك. قال الله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران/ ٨٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مُقَرَّب ﴿**أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ أي: لا يَفْعَل ذلك؛ لأنَّ من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٢/ ص ٦٧).

ثم استدل المؤلف رحمه الله بقَوْله تَعَالَى: ﴿**وَأَنَّ المساجد لله فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً**﴾ [**الجن: ١٨**] على تحريم الشرك. قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ المساجد لله**﴾. فالمساجد مواضع للسجود، أي: لإقامة الصلوات، كما قال البغوي رحمه الله: يعني المواضع التي بنيت للصلاة وذكر الله. ("معالم التنزيل"/ ٨/ ص ٢٤٢).

ويجوز أن تكون المساجد: أعضاء السجود. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد ورد في التفسير ﴿**وَأَنَّ المساجد لله**﴾ أعضاء السجود. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٠/ ص ٤٩٢).

قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا**﴾ [الجن/ ١٨]، يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة. وقوله: ﴿ **أَحَدًا**﴾ نكرة في سياق النهي تفيد العموم، فلا يجوز دعاء أحد غير الله، مهما عظم قدره.

قال الإمام الطبري رحمه الله: ولا تشركوا به فيها شيئاً، ولكن أفردوا له التوحيد، وأخلصوا له العبادة. ("جامع البيان" / ٢٣ / ص ٦٦٥).

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله في تفسير هذه الكلمة: مِن خلقه كائناً ما كان. ("فتح القدير"/ ٧/ ص ٣٢٧).

فالخلاصة: أن جميع مواضع العبادات –بل جميع بقاع الأرض–، وكذلك سائر أعضاء السجود –بل سائر أعضاء الإنسان مِلك لله وحده، فلا يجوز أن يشرك به فيها شيء.

قال المؤلف رحمه الله: (**الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ**).

الشرح:

هذه الكلمات تدل على أن الشهادتين تتضمن توحيد الله وطاعة الرسول، وهما أعلى مراتب الإيمان بالله. والإيمان بالله يقتضي عدم موالاة الكفار، لأنهما متناقضان. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر فإذا وجد الإيمان انتقى ضده وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ١٧).

وقال رحمه الله: والواجب علي كل مسلم أن يكون حبه وبغضه، وموالاته ومعاداته، تابعا لأمر الله ورسوله . فيحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي من يوالي الله ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله. ("مجموع الفتاوى"/ ٣٥ / ص٩٤).

وقول المؤلف رحمه الله: (**وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ**) ينص على أن الإيمان الحقيقي يقتضي محبة الله ورسوله وبغض أعداء الإسلام وإن كان أقرب الناس إليه. عن أنس عن النبي ﷺ قال: « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف في النار**». (أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣)).

ثم قال رحمه الله: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [المجادلة: ٢٢]).

الشرح:

هذه الآية تدل على أن مودة أعداء الله ذنب قد يخرج صاحبه من الإسلام، وقد ينقص إيمانه فقط، على حسب تلك المودة الزائغة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافراً. ("مجموع الفتاوى" / ٧/ ص ٥٢٢-٥٢٣).

وقال الإمام الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿**وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾ يقول: وقوّاهم ببرهان منه ونور وهدى. ("جامع البيان"/ ٢٣/ ص ٢٥٨).

وقال رحمه الله: يقول: أولئك الذين هذه صفتهم جند الله وأولياؤه. ("جامع البيان" / ٢٣/ ص ٢٥٨).

وحزب الله هم جنوده، وهم الموعود لهم بالفلاح. والفلاح هو الفوز بإدراك المطلوب والنجاة من المرهوب. قال الإمام الطبري رحمه الله: ﴿**هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ يقول: هم الباقون المُنْجحون بإدراكهم ما طلبوا، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا، وطاعتهم ربهم. ("جامع البيان" / ٢٣/ ص ٢٥٨).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: والمفلح الذي ينال المطلوب وينجو من المرهوب. ("مجموع الفتاوى" / ٣٥/ ص١٧١).

هذه الآية الكريمة بيان أن موالاة الله ورسوله لا تجتمع مع موالاة أعداء الإسلام. فمن والاهم فقد فسد إيمانه بالله ورسوله واليوم الآخر. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فأخبر أن من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم. فإذا حصلت الموادة دلّ ذلك على خلل الإيمان. وكذلك قوله: ﴿**تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ [المائدة/ ٨٠، ٨١]. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٥٤٢).

وقال أبو بكر بن محمد الدمشقي الشافعي رحمه الله: فقد نفى الله تعالى الوجدان ممن آمن، فدل على أن من وادهم ليس بمؤمن، وقد عدا بعض العلماء ذلك إلى موادة الفسقة من المسلمين، فحرم مجالسة الفساق على سبيل المؤانسة، وقد صرح الرافعي والنووي بذلك في كتاب الشهادات. ("كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار"/ ٢/ ص٧١).

[حقيقة الحنيفية هي توحيد الله في العبادة]

قال المؤلف رحمه الله: (**اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحُنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**).

الشرح:

الحنيفية هي الميل عن الشرك إلى التوحيد، والإقبال على الحق مع الإعراض عن الباطل. قال الراغب رحمه الله: الحنف : هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة. ("مفردات القرآن" / ص ٣٦٢).

وهذه الحنيفية هي ملة إبراهيم، وهي الإسلام. قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [آل عمران/ ٦٧]. وأمرنا الله باتباعها فقال: ﴿**قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [آل عمران/ ٩٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالدين الحنيف هو الإقبال على الله وحده، والإعراض عما سواه، وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة لا إله إلا الله. ("مجموع الفتاوى"/ ٩/ ص ٣١٩).

قال أمر الله جميع الناس بتوحيده في العبادة فقال عن أنبيائه: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: ٦٥]. فالله تعالى خلق عباده ليعبدوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه مخلصين له الدين. هذه هي حكمة خلقهم. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص١٩).

وقوله تَعَالَى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٧/ ص ٤٢٥).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يُوَحِّدُونِ**).

الشرح:

قال الإمام البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقيل: ﴿**إلا ليعبدون**﴾ إلا ليوحّدوني. ("معالم التنزيل"/ ٧/ ص ٣٨١).

فحقيقة العبادة هي توحيد المعبود. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقوله: ﴿**اعبدوا ربكم**﴾ أي أخلصوا له العبادة. ("الرد على البكري"/ ص٢٧٥).

فمن عبد الله مع الشرك في ذلك فكأنه لم يعبده، كما قال الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ [الكافرون/ ١-٣].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: وقيل: إن معنى الآيات وتقديرها: قل: يأيها الكافرون، لا أعبد الاصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عزوجل الذي أعبده، لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون، لأنكم تعبدونه مشركين –إلى قوله:– معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي، التي هي توحيد. ("الجامع لأحكام القرآن" / ٢٠ / ص ٢٢٨).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: العبادة لا تكون إلا من مخلص. ("مدارج السالكين"/ ١ / ص ٧٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ الله تعالى بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّركُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُواْ الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٥]**).

الشرح:

إن أعظم حقوق الله تعالى الذي يجب على العباد أداءه هو توحيده، وهو المذكور في حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «**حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً**». (أخرجه البخاري (٦٥٠٠) ومسلم (٣٠)).

والتوحيد أول دعوة المرسلين عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

وهكذا رسولُ رسولِ الله ﷺ. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى. فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم. فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس**». (أخرجه البخاري (٧٣٧٢)).

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، والألوهية والأسماء والصفات. وتوحيد الألوهية من لوازم توحيدي الربوبية والأسماء والصفات. وتوحيد الألوهية هو قطب رحى دعوة الأنبياء، ومن أجله خلق الله هذه الأكوان، فصار أعظم الأقسام الثلاثة. فتعريف المؤلف رحمه الله التوحيد بتوحيد العبادة من باب تعريف الشيء بما هو أغلب وأهمّ وأجلّ، كما أطلق الله تعالى الشرك مقابلاً لتوحيد الألوهية، في قوله سبحانه: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا**

يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، وقوله جل جلاله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والربوبية تستلزم الألوهية. ("مجموع الفتاوى" / ١٤/ ص ١٣).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون فاحتج الله عليهم به فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية. ("إغاثة اللهفان"/ ٢/ ص ١٣٥).

وإذا كان التوحيد أعظم الأوامر، هذا يلزم أن يكون الشرك أعظم النواهي، كما قال المؤلف رحمه الله: (**وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ**). ذلك لأن الله قد نهى عن الظلم، وهو وضع شيء غير موضعه. وأعظم الظلم هو صرف العبادة إلى غير الله، لأن فيه إعطاء أعظم الحقوق إلى غير مستحقه. قال الله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان/ ١٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين، هو أعظم العدل. وضدّه وهو الشرك أعظم الظلم. ("مجموع الفتاوى"/ ١٨/ ص ١٦١).

وفي الشرك نوع التسوية برب العالمين. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل/ ١٧-٢١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فأخبر أنه خالق منعم عالم، وما يدعون من دونه لا تخلق شيئا، ولا تُنعم بشيء، ولا تَعلم شيئا، وأخبر أنها ميتة. فهل يستوي هذا وهذا؟ فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه؟ ولهذا كان هذا أعظم الظلم والإفك. ("مجموع الفتاوى"/ ١٤/ ص ١٧٨).

ثم استدل المؤلف رحمه الله بقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾. وتتمة الآية: قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء/ ٣٦].

في هذه الآية ذكر الله تعالى بعض الواجبات، فبدأ بالأعظم فالأعظم، فبدأ بالأمر بالتوحيد مع النهي عن الشرك، ثم ثنّى ببر الوالدين، وذلك كقوله تعالى: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** [الإسراء/ ٢٣]. الآية. ولا شك أن حرف الواو لا تقتضي الترتيب أصلاً، ولكن من عادة العرب: الابتداء بذكر الأهمّ فالأهمّ.

وقوله: **﴿شَيْئًا﴾** في قوله: **﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** [النساء/ ٣٦] نكرة في سياق النهي، تفيد العموم، فلا يجوز الشرك في أي شيء بأي نوع من أنواع الشرك.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: و **﴿شيئاً﴾** إما مفعول به ، أي : لا تشركوا به شيئاً من الأشياء من غير فرق بين حيّ وميت ، وجماد وحيوان ، وإما مصدر ، أي : لا تشركوا به شيئاً من الإشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر والأصغر والواضح والخفي. ("فتح القدير"/ ٢/ ص ١٤١).

[وجوب معرفة أصول الدين الثلاثة]

قال المؤلف رحمه الله: (**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ**).

الشرح:

قوله رحمه الله: (الأصول) جمع الأصل، وهو ما ينبى عليه غيره أو يتفرع عنه غيره. قال أبو المعالي الجويني رحمه الله: فالأصل ما بني عليه غيره، والفرع ما يبنى على غيره. ("الورقات" / ص ٣).

وأمور هذا الدين تدور وتتفرع من هذه الأصول الثلاثة التي ذكرها مؤلف رحمه الله، وهي: معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة الإسلام. ومما يدل على أهمية هذه الأمور الثلاثة:

الأول: أن فتنة القبور تدور حولها، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «**...ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك؟ فيقول : ربي الله. فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : ديني الإسلام. فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: فيقول : هو رسول الله ﷺ. فيقولان : وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فذلك قول الله عز وجل: ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾». الآية. فينادى مناد من السماء: أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة وألبسوه من الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها. قال: ويفتح له فيها مد بصره. قال: وإن الكافر. فذكر موته قال: وتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول: هاه هاه لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار. قال: فيأتيه من حرها وسمومها. قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه**». (أخرجه أبو داود (٤٧٥٥)، وحسنه الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح" / (٥١٥)).

الثاني: أنها سبب لدخول الجنة. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أبا سعيد من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة**». (أخرجه مسلم (١٨٨٤)).

الثالث: أنها سبب بغفران الذنوب. عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا، غفر له ذنبه**». (أخرجه مسلم (٣٨٦)).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله. والرضى بمحمد رسولا يتضمن شهادة أن محمدا رسول الله. والرضى بالإسلام دينا: يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله، **فجمعت هذه الثلاثة الدين كله**. ("مدارج السالكين"/ ٢/ ص ١٨٥).

الرابع: نيل حلاوة الإيمان. عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا**». (أخرجه مسلم (٣٤)).

وهذه المسائل الثلاثة هي أصول الإسلام. قال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد ذكر هذا الحديث: فجعل الرضى به قرين الرضى بدينه ونبيه، **وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها**. ("مدارج السالكين"/ ٢/ ص ١٨٥).

[معرفة العبد ربه عز وجل]

قال المؤلف رحمه الله: (**الأصل الأول: معرفة الرب. فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لله ربِّ الْعَالَمِينَ﴾. وَكُلُّ مَا سِوَى الله عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ**).

الشرح:

قوله رحمه الله: (**رباني** ...) من التربية، أي: الاعتناء والتغذية والإنماء، انظر "لسان العرب" (٤/ ص٥٦/ لابن منظور).

وتربية الله لنا تكون بإسداء أنواع نعمه. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والرب هو الذي يربّي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٢٢).

فذلك ربنا الذي خلقنا ورزقنا وربانا بجميع نعمه التي لا يحصيها إلا هو، ولكن كثيراً من الناس لكافرون. قال تعالى: ﴿**الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم/ ٣٢-٣٤].

استدل المؤلف رحمه الله بقول الله تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ على أن الله هو رب جميع المخلوقات مع اختلاف أجناسها. والإقرار بربوبية الله يستلزم إفراده بالعبادة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح. والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر مِن عبادة مَن هذا شأنه وحده لا شريك له. ("بدائع الفوائد"/ ٤/ ص ٩٤٣).

وهذا الرب بجميع تدبيره وحكمته الباهرة وعلمه الكامل هو المستحق لكمال الحمد بجميع أوجه. قال شيخ الإسلام رحمه الله: قال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ فذكر الحمد بالألف واللام التى تقتضى الاستغراق لجميع المحامد فدل على أن الحمد كله لله. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٨٩).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله على أن جميع: (**مَا سِوَى الله عَالَمٌ**) فجميع المخلوقات داخل تحت مسمى العالم. قال الزجاج رحمه الله: وقوله عز وجل: ﴿**العالمين**﴾ معناه كل ما خلق الله، كما قال: ﴿**وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام/ ١٦٤] وهو جمع عالم. ("معاني القرآن وإعرابه"/ للوجاج/ ١/ ٥٢/ دار الحديث).

قال المؤلف رحمه الله: (**وإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ**)،

الشرح:

إن الله تعالى قد نصب آيات في الآفاق وفي أنفس عباده ليعرفوه بها. قال الله تعالى: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿**فاطر السماوات والأرض**﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني في قولهم: ﴿**أفي الله شك**﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٤/ ص٤٨٢).

وقول المؤلف رحمه الله (**بآياته**)، الآيات جمع الآية. وهي: العلامة والعبرة والعجائب، (كما في "لسان العرب" ١/ ص٢٩١-٢٩٢).

جميع المخلوقات من آيات الله. فقول المؤلف رحمه الله (**بآياته ومخلوقاته**)، فهذا من باب عطف الخاص على العام. وفائدة ذكر الخاص بعد العام تنبيه على أن الخاص في هذا المقام داخل في العام. راجع زيادة البيان في كتاب "العبودية" مثلاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ص ٥٧-٥٨.

قال المؤلف رحمه الله: (**فمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ**)،

الشرح:

فصّل الإمام المؤلف رحمه الله الكلام بعد الإجمال، وهذا يسمى لفا ونثرا. فذكر المؤلف أن من آيات الله التي بها يعرف العبد ربه: الليل والنهار. وذكر الله تعالى الليل والنهار في القرآن كثيرا ليستدل العباد بها على كمال صفات الله وصدق أخباره. ولم يعتبر بها إلا أولو الألباب.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه كقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**﴾ [فصلت/ ٣٧]، وقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا**﴾ [الفرقان/ ٤٧]، وقوله عز وجل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء/ ٣٣]، وقوله عز وجل: ﴿**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**﴾ [غافر/ ٦١]. وهذا كثير في القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته، كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم، فتسكن فيه الحركات، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وكشفها عن العالم، فإذا هم مبصرون. فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فيا له من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص ٢٠٣-٢٠٤).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله: الشمس والقمر. فالشمس أعظم آيات النهار، كما أن القمر أعظم آيات الليل. وهذه الآيات الأربع لها منافع عظيمة للعباد، وهنّ دلالة على وحدانية الله بجميع صفاته العلى.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور؟ ثم تأمل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم، مثل ذلك ليقروا ويهدؤا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحرّ هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [القصص/ ٧١، ٧٢]. ("مفتاح دار السعادة" / ١/ ص٢٥١/ مكتبة العصرية).

قال المؤلف رحمه الله: (**وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وما فيهن، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ**)

الشرح:

من تدبر خلق السماء حق تدبرها عرف ربها. قال الإمام ابن القيم رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ**﴾ [البروج/ ١]: ومن ذلك إقسامه سبحانه: ﴿**والسماء ذات البروج**﴾ التي تنزلها الشمس والقمر وفُسّرت بالنجوم أو نوع منها، وفسرت بالقصور العظام. وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكروي لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع بل هو متساوي الجوانب. فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولامريد، ولا حي، ولا حكيم، ولا مباين للمفعول. وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربا بائنا قادرا فاعلا بالاختيار عالما بتفاصيله حكيما مدبرا له. ("التبيان في أقسام القرآن"/ ص١١٦/ مكتبة أولاد الشيخ).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الأرض، وبها أيضا تعرّف الله إلى عباده. قال الله تعالى: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ**﴾ [الذاريات/ ٢٠].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فآيات الأرض أنواع كثيرة، منها: خلقها وحدوثها بعد عدمها، وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها، ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغمورا به. ومنها: سعتها وكبر خلقها. ومنها: تسطيحها –إلى قوله:– لها سطح يستقر عليه الحيوان. ومنها: أنه جعلها فراشا لتكون مقرّ الحيوان، ومساكنه، وجعله قراراً، وجعلها مهاداً ذلولا توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول والفئوس، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد. منها: وجعلها بساطا، وجعلها كفاتا للأحياء تضمّهم على ظهرها، وللأموات تضمّنهم في بطنها، وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج. ونبه بجعلها مهادا

وفراشا على حكمته في جعلها ساكنة، وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه كما تكفأ السفينة، فاقتضت العناية الأزلية والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها لئلا تميد، وليستقرّ عليها الأنام، وجعلها ذلولا على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد فيمتنع حفرها وشقها والبناء فيها والغرس والزرع وبعث النوم عليها والمشي فيها. ونبه بكونها قرارا على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة فلا تمسك بناء ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة، بل جعلها بين الصلابة والدماثة. وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب والفضة والياقوت والزمرد. فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر، وأنفع، وأبرك، وإن كانت تلك أعلى وأعز ...إلخ. ("التبيان في أقسام القرآن"/ ص٢٦٩-٢٧١/ مكتبة أولاد الشيخ).

قال المؤلف رحمه الله: (**وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا الله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [فصلت: ٣٧]. **وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**).

الشرح:

قول المؤلف رحمه الله: (**ومن فيهن**) يدل على أن جميع ما في السموات وما في الأرض دليل على وحدانية الله بجميع أوصافه الجميلة العالية. فمما في السماء الكواكب. ومما في الأرض: جميع الحيوانات والنبات والمعادن وإنس وغير ذلك. ومما بين السماء والأرض: السحاب، كما قال تعالى: ﴿... **وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة/ ١٦٤].

ثم استدل المؤلف رحمه الله بآية "فصلت" على كون الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله الدالة على توحيده في الربوبية والألوهية. قال الإمام الشوكاني رحمه الله: شرع سبحانه في بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته ، وقوّة تصرفه للاستدلال بها على توحيده، فقال : ﴿**وَمِنْ ءاياته الليل والنهار والشمس والقمر**﴾، ثم لما بيّن أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس، والقمر، وأمرهم بأن يسجدوا لله عزّ وجلّ، فقال: ﴿**لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ**﴾، لأنهما مخلوقان من مخلوقاته، فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته ﴿**واسجدوا الله الذى خَلَقَهُنَّ**﴾ أي: خلق هذه الأربعة المذكورة، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الإناث، أو الآيات، أو الشمس، والقمر، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة ﴿**إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ قيل : كان ناس يسجدون للشمس، والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن ذلك، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهي عنه. ("فتح القدير"/ ٦/ ص ٣٥٨).

ثم استدل المؤلف رحمه الله بآية "الأعراف" على المخلوقات.

وفي تعاقب الليل والنهار آيات للموقنين بكمال تدبير الله. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا،...إلأخ. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٣ / ص ٤٢٧).

وقوله: ﴿**مسخرات بأمره**﴾ في هذه الآية ذكر بعض مخلوقات الله العظام وتسخير الله في العالم.

قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، كلّ ذلك بأمره، أمرهن الله فأطعن أمرَه، ألا لله الخلق كله، والأمرُ الذي لا يخالف ولا يردّ أمره، دون ما سواه من الأشياء كلها، ودون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا تأمر، تبارك الله معبودُنا الذي له عبادة كل شيء، رب العالمين. ("جامع بيان"/ ١٢/ ص ٤٨٣-٤٨٤).

قوله: ﴿**تبارك الله**﴾ فعل لازم، فمعناه كما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله: ﴿**تبارك الله**﴾ دال على كمال بركته وعظمها وسعتها. ("بدائع الفوائد" / ٢ / ص ٤١١)

قال المؤلف رحمه الله: (**وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ اللهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ**).

الشرح:

بعد أن ذكر قول الله تعالى: ﴿**تبارك الله رب العالمين**﴾ قال المؤلف رحمه الله: (**والرب هو المعبود**)، هذا تناسب جيد. فالرب هو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [الأنعام/ ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [يونس/ ٣].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: إنه لا شيء له الألوهية والعبادة، إلا الذي خلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادةُ جميع من في السموات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها، فإنه خالق كل شيء وبارئه وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة. ("جامع البيان"/ ١٢ / ص١٢-١٣).

وقوله: ﴿**الذي خلقكم**﴾ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ثم قال الذي خلقكم فنبه بهذا أيضا على وجوب عبادته وحده، وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [لقمان/ ٢٥]. فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود؟ وكيف يجعلون معه شريكا في العبادة وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق؟ **وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية**. ("بدائع الفوائد"/ ٤ / ص ٩٤٣).

ثم قال رحمه الله: ثم قال: ﴿**والذين من قبلكم**﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم وإنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم. ("بدائع الفوائد/ "٤ / ص ٩٤٣).

قوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾ بيان أن حكمة خلق الناس أن يتقوا الله، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه مع غاية التذلل وغاية المحبة، وهذا هو العبادة. قال الإمام ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية: ثم ذكر المطلوب من خلقهم وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه، ويذكرونه فلا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه، هذه حقيقة تقواه –إلى قوله:– **أن التقوى هي العبادة**. ("بدائع الفوائد"/ ٤/ ص ٩٤٣).

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ بيان أن هذه الأفعال الجميلة الباهرة كلها تدل على أن خالق الأكوان متصف بجميع صفات الكمال. فمن كان كذلك فكيف لا يستحق أن يُفرد في الحب والعبادة والتعظيم؟

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته، وإرادته، وعلمه، وحكمته، وحياته. وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبيه له فيها، ولا في أفعاله، فلا شريك له فيها. ("بدائع الفوائد"/ ٤/ ص ٩٤٣).

ثم قال المؤلف رحمه الله: (**قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ**). ابن كثير رحمه الله هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي. إمام في الفقه والتفسير والنحو والرجال والعلل. ومن جملة مشايخه شيخ الإسلام ابن تيمية ولازمه وأحبه حبا عظيما . توفي فى شعبان سنة ٧٧٤ هـ. (انظر في "البدر الطالع " / ١/ ص١٠٢-١٠٣/ دار الكتب العلمية).

وقوله: (**الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ**) بمعنى: لا يستحق أن يُعبد إلا خالق العالم. وقد مر بنا أقوال العلماء في ذلك.

[معرفة دين الإسلام، وفيه عبادة الله بجميع أنواعها]

قول المؤلف رحمه الله: **(وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ. وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، والتوبة، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا لله تَعَالَى)،**

الشرح:

وقد مر بنا تعريف العبادة من كلام شيخ الإسلام رحمه الله. وليست العبادة إلا أن تكون مع غاية المحبة وغاية الخضوع لله. قال شيخ الإسلام رحمه الله: لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ١٥٣).

وذكر المؤلف رحمه الله مراتب الإسلام الثلاثة. هذا يدل على أن دين الإسلام ليس على مرتبة واحدة. فكلما حسنت عبادة العبد لربه عز وجل ارتقى إلى ما هو أعلا منه بإذن الله وفضله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: جعل النبي الدين ثلاث درجات أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام. فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم. وليس كل مؤمن محسنا، ولا كل مسلم مؤمناً. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٧).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله بعض أنواع العبادات، وكلها لا يستحقها إلا الله. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وبالجملة فالقيام، والقعود، والركوع، والسجود حق للواحد المعبود خالق السموات والأرض. **وما كان حقا خالصا لله لم يكن لغيره فيه نصيب** –إلى قوله:– فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٧/ ص ٩٣).

قال المؤلف رحمه الله: (**وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ المساجد لله فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً﴾** [الجن: ١٨]).

الشرح:

قوله رحمه الله: (والدليل) أي: الدليل على أن العبادة كلها لله. ذلك لأن الدعاء المذكور في هذه الآية شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: دعاء الله المذكور في القرآن نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٢/ ص ٤٩٨).

قد مر بنا تفسير هذه آية سورة "الجن". فلا يجوز الشرك في أي دعاء، ولا يُدعى أحد سوى الله ولا مع الله. قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولا يدعوا إلا الله، كما قال تعالى: ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا**﴾ وقال تعالى: ﴿**ولا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين**﴾ سواء كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة. ("مجموع الفتاوى"/ ٢/ ص ٤٨٩).

وسؤال الغير في الأصل لا يجوز لأدلة ذكر بعضها المؤلف رحمه الله، إلا عند الضرورة فجائز بشرط أن يكون المسئول حيا قادراً حاضراً كما هو معروف.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله، فقيرا إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا إليه. ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة. وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في "الصحاح" و"السنن" و"المسانيد". ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص١٨٢).

قال المؤلف رحمه الله: (**فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ». وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** [غافر: ٦٠]).

الشرح:

من صرف شيئاً من العبادات إلى غير الله فإنه مشرك كافر لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المؤمنون/ ١١٧]. وقوله تعالى: ﴿**لا برهان له به**﴾ ليس له مفهوم مخالفة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والتقييد هنا لا مفهوم له –إلى قوله:– ولكن في هذا بيان الوصف المناسب للحكم. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٦١).

فمعنى هذا الكلام: أن الشرك لا يقوم له بينة. قال الإمام البغوي رحمه الله: أي: لا حجة له به ولا بينة، لأنه لا حجة في دعوى الشرك. ("معالم التنزيل"/ ٥/ ص ٤٣٣).

وفيها دليل على أن الكافر المشرك لا يفلح. قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول: إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم. ("جامع البيان"/ ١٩/ ص ٨٥).

ثم استدل المؤلف رحمه الله الدليل من السنة: «**الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ**». وهذا الحديث أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ به. (٣٣٧١). في سنده عنعنة الوليد بن مسلم، وهو مدلس تدليس التسوية. وفي سنده أيضا ابن لهيعة وهو مدلس وسيء الحفظ، رحمهما الله. **فالحديث ضعيف**.

ويكفينا الاستدلال بحديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدعاء هو العبادة**». ثم قرأ: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**﴾ [غافر/ ٦٠] الآية». أخرجه أحمد (١٨٨٤٩)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢) **بسند صحيح**.

قوله تعالى: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾ دليل واضح جلي على أن الدعاء عبادة، فلا يجوز صرفه إلى غير الله. بل الدعاء أبرز أنواع العبادة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الدعاء عبادة. ("إغاثة اللهفان"/ ص٢٠١).

وهذا معلوم حتى عند المشركين أنهم يقصدون بدعائهم آلهتهم عبادتهم إياهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر؛ لوجوه ثلاثة: أحدها : أنهم قالوا : ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ [الزمر : ٣] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في موضع آخر، كقوله تعالى: ﴿**وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون**﴾ [الشعراء : ٩٢، ٩٣] ، وقوله تعالى: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ [الأنبياء : ٩٨] ، وقوله تعالى: ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ [الكافرون : ٢] ، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم

الثالث: أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء، فإذا جاءتهم الشدائد، دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا، فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة. وقوله تعالى: ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين**﴾ [غافر: ١٤]، هو دعاء العبادة، والمعنى: اعبدوه وحده، وأخلصوا عبادته، لا تعبدوا معه غيره.

(انتهى من "مجموع الفتاوى"/ ١٥/ ص١٣).

قال المؤلف رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**).

الشرح:

الخوف هو الفَزَعُ، وهو الفرق والذعر من الشيء. (كما في "لسان العرب").

إن من مكر الشيطان بأهل الإيمان أن يخوّفهم بقوة جنود إبليس. فلا يجوز للمؤمن أن يخافهم لأنه يدل على ضعف الإيمان، وذلك لأن الإيمان يقتضي إفراد الله في الخوف.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن كيد عدو الله تعالى: أنه يخوّف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر. وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا قال: ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوفم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران: ١٧٥]. المعنى عند جميع المفسرين: يخوّفكم بأوليائه. قال قتادة: يعظِّمهم في صدوركم. ولهذا قال: ﴿**فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم. ("إغاثة اللهفان"/ ص ١١٠).

فهذا النوع من الخوف حرام وشرك، وقد أمرنا الله ألا نخاف إلا إياه.

ودخل في هذا الباب: جميع الخوف الذي ليس من الأمور الطبيعية، كالخوف من الجن أو القبور، فيعتقد صاحبه أن الجن أو القبور أو هذا التمثال سيضره، فهذا شرك لأنه لا يضرّ ولا ينفع إلا الله، ولا يقع شيء من ذلك إلا بإذنه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك، **فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه**. قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا الله**﴾ [الأحزاب/ ٣٩]. وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق. وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف، كما ذكرنا في المحبة، وكذا الرجاء، وغيره. **فهذا هو الشرك الخفي** الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه إلا من عصمه الله تعالى. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٩٤).

وقال العلامة عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ في أنواع الخوف: الثاني : أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفا من بعض الناس فهذا محرم، **وهو نوع من الشرك بالله** المنافي لكمال التوحيد. ("فتح المجيد"/ ص ٣٣٢).

ومن خاف غير الله عوقب وابتلي بالذل والهوان وسيطرة العدو. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فمن خاف شيئاً غير الله سلط عليه. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص٤٧٠).

وأما الخوف الطبيعي فإنه جائز، وقد حصل ذلك في بعض الأنبياء عليهم السلام، ولا يمنعهم ذلك من إقامة الحق. قال الله تعالى: ﴿**قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى**﴾ [طه/ ٤٥].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه، مع معرفتهم به وثقتهم. -إلى قوله:- موسى ﷺ حين قال له الرجل: ﴿**إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين**﴾ [القصص: ٢٠ - ٢١] وقال: ﴿**فأصبح في المدينة خائفا يترقب**﴾ [القصص: ١٨] وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم: ﴿**فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى**﴾ [طه: ٦٧ - ٦٨].

ومنه حفر النبي ﷺ الخندق حول المدينة تحصيناً للمسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربّه بمحلّ لم يبلغه أحد. ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحوّلهم عن منازلهم، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة، تخوّفاً على أنفسهم من مشركي مكة، وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم- إلى قوله:- وقد طبعهم على الهرب مما يضرّها ويؤلمها أو يتلفها.

(انتهى النقل من "الجامع لأحكام القرآن"/ ١١/ ص ٢٠٢).

قال المؤلف رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾**).

الشرح:

الترجّي هو طلب الشيء المحبوب الذي يرجى حصوله. ("تعجيل الندى بشرح قطر الندى"/ ١/ ص ١٢١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه. ("مدارج السالكين"/ ٢/ ص ٤٧).

فالرجاء ينبغي أن يُفرَد اللهُ تعالى وحده فيه، لأن النفع والضرر بيده لا بيد غيره. وإن كان الله قد جعل لكل شيء سبباً، فلا يجوز أن يتعلق القلب بذلك السبب، بل لا بد من الاعتقاد بأن الأمر كله بيد الله، فلا يحصل له نفع إلا بإذن الله، ولا يدفع عنه ضرر إلا بمشيئته، وأن المسببات قد تتخلف لوجود مانع من الله. فلا يرجو إلا من الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق، ولا بقوة العبد، ولا عمله، **فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك**، وإن كان الله قد جعل لها أسباباً، فالسبب لا يستقلّ بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ٢٥٦).

فمن رجا الله فقد أفلح لأن الله وليه، **﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** [الحج/ ٧٨]. ومن رجا غيره فقد خاب بمجيء نقيض قصده.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فمن رجا قوته، أو عمله، أو علمه، أو حاله، أو صديقه، أو قرابته، أو شيخة، أو ملكه، أو ماله، غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب. وما رجا أحد مخلوقاً

أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، **فإنه مشرك، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾** [الحج/ ٣١]. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ٢٥٧).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته وحرم خيره. هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص٤٧٠).

ثم استدل المؤلف رحمه الله بآية "الكهف" على أن الرجاء من العبادة. هذه الآية تدل على أن من يرجو حسن العاقبة عند لقاء ربه لا بد له أن يتأهب بتحسين الأعمال، لا بمجرد التمني. قال الله تعالى: **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾** [النساء/ ١٢٣، ١٢٤].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في الرجاء: والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل. ("مدارج السالكين"/ ٢/ ص ٣٥).

قال المؤلف رحمه الله: (**ودليل التَّوَكُلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**).

الشرح:

حقيقة التوكّل: هو صدقُ اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفعِ المضارِّ من أمور الدنيا والآخرة كُلِّها، وكِلَةُ الأمور كلّها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يمنعُ ولا يَضرُّ ولا ينفع سواه. ("جامع العلوم والحكم"/ للإمام ابن رجب/ الحديث التاسع والأربعون).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: والتوكل جامع لمقام التفويض، والاستعانة، والرضى، لا يتصور وجوده بدونها. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ١٣٦).

واستدل المؤلف رحمه الله بآية "المائدة" على أن التوكل على الله واجب على كل عبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات، كما أن الإخلاص لله واجب. وحبّ الله ورسوله واجب. وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء، والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله. قال تعالى: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود/ ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿**اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التغابن/ ١٣]. وقال تعالى: ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران/ ١٦٠]. وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ**﴾ [يونس/ ٨٤]. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ١٦).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آية سورة "الطلاق" على فضيلة التوكل على الله.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ أي: ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه. ("فتح القدير"/ ٧/ ص٢٤١).

فمن اعتمد على الله في جلب منفعة أو دفع مضرة فإن الله كافيه، ذلك لأن الله ولي المؤمنين المتوكلين عليه. عن عمر بن الخطّاب رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**». (أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وهو حسن بطرقه كما في "الصحيح المسند" (٩٨٦)).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فهو سبحانه كاف عبده في إزالة الشرّ، وفي إنالة الخير. ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ [الزمر/ ٣٦]. ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم، ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت**﴾ [العنكبوت/ ٤١]. إلخ. ("مجموع الفتاوى"/ ٨/ ص ١٦٥).

وليس التوكل ترك الأخذ بسبب، بل علينا اتباعُ هدي رسول الله صلى الله وسلم فيعتمد قلبه على الله، ويأخذ أسباب الرزق والأمن والظفر بجسده.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها. فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية. ("مدارج السالكين"/ ٢/ ص ١٢٠).

قوله رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾** [الأنبياء: ٩٠]).

الشرح:

الرغبة ثمرة الرجاء. قال ابن القيم رحمه الله: والفرق بين الرغبة والرجاء أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف. فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئاً هرب منه. ("مدارج السالكين"/ ٢/ ص ٥٥).

ثم اعلم أن الخير والشر تحت تصرفات الله، فلا ينفع ولا يضر إلا الله، ولا أحد يستطيع ذلك إلا بإذن الله، فلا تجوز الرغبة إلا منه تعالى، لأنها من العبادة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والله قد جعل له حقاً لا يشركه فيه مخلوق، فلا تصلح العبادة إلا له، ولا الدعاء إلا له، ولا التوكل إلا عليه، **ولا الرغبة إلا إليه**، ولا الرهبة إلا منه، ولا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يُذهب السيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له –إلى قوله:– والرغبة إلى الله وحده. ("مجموع الفتاوى"/ ١١/ ص ٩٨-٩٩).

ثم تكلم المؤلف رحمه الله في الرهبة هي الهرب مما يكرهه.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ٥١٢).

والرهبة لا تكون إلا من الله وحده، كما أن جميع العبادات له وحده. قال الله تعالى: **﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾** [النحل/ ٥١].

ثم تكلم المؤلف رحمه الله في الخشوع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والخشوع يتضمن معنيين أحدهما: التواضع والذل. والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة. فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضا. ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا، وهذا التواضع والسكون. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٢٨).

قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله: كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا ، والعمل بما يقرّبهم إلينا. ("جامع البيان"/ ١٨/ ص ٥٢١).

قوله تعالى: ﴿ **وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً**﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله: ويعني بقوله ﴿**رَغَبا**﴾ أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله ﴿**وَرَهَباً**﴾ يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته. ("جامع البيان"/ ١٨/ ص ٥٢١).

وقوله: ﴿**وَكانوا لنا خاشعين**﴾ دليل على أن الخشوع من العبادة، وذلك لأن الخشوع يتضمن التذلل والخضوع، فلا يجوز ذلك إلا لله وحده.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه. وقيل: الخشوع الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وردّ عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ٥٢١).

قوله رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...﴾ الآية**).

الشرح:

قال الراغب رحمه الله: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله : ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. ("مفردات القرآن"/ ص ٢٨٣).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته. فمتى عرف اللهَ وعرف حقَّه اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر/ ٢٨]. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبي: «**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» [أخرجه البخاري (٢٠) ومسلم (٢٦٤٩) عن عائشة رضي الله عنها]. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ١٣٦).

هذا دليل على أن الخشية عبادة، فلا تكون إلا لله. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾ [البقرة/ ١٥٠] أي: لا تخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنتين، وأفْرِدُوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه. ("تفسير القرآن"/ ١/ ص ٤٦٤).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: والعبادة تتضمن كمال الحب، وكمال التعظيم، وكمال الرجاء، والخشية، والإجلال والإكرام. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ٤٨٨).

قوله رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾ الآية**).

الشرح:

الإنابة لغة الرجوع مع الإسراع. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن الإنابة إلى الله والمتاب هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله. ("مجموع الفتاوى"/ ٨/ ص ٥٢٧).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهي تتضمن أربعة أمور: محبته والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك. وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابّه. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ٤٣٤).

فالإنابة من العبادة فلا تكون إلا لله. قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وأقبلوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة، وارجعوا إليه بالطاعة له، واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه من توحيده، وإفراد الألوهية له، وإخلاص العبادة له. ("جامع البيان"/ ٢١/ ص ٣١١).

وقال رحمه الله: وقوله: ﴿**وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾ يقول: واخضعوا له بالطاعة والإقرار بالدين الحنيفي. ("جامع البيان"/ ٢١/ ص ٣١٢).

قال رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وفي الحديث: «...وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»**).

الشرح:

الاستعانة هي طلب العون. قال الإمام القرطبي رحمه الله: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ أي: نطلب العون والتأييد والتوفيق. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ١/ ص ١٤٥).

فالإنسان خلق ضعيفًا، لا يستقيم أمره إلا بإعانة ربه عز وجل، سواء كان في عباداته، أو في غيرها. فصرف الاستعانة وعموم العبادة إلى غير الله رجع ضرره عليه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته، وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه مضرته وهلاكه وفساده. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٢٩).

والاستعانة التي فيها نوع من الخضوع لا تكون إلا بالله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والله سبحانه وتعالى أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو، فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته، وبرجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالإستعانة به. ("مجموع الفتاوى"/ ١٨/ ص ٣١٩).

والاستعانة بالله من أعظم أسباب الظفر والنصر والفوز بالمقصد. قال شيخ الإسلام رحمه الله: إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية ويستعينه على طاعته، أعانه وهداه، وكان ذلك سبب سعادته في الدنيا والآخرة، وإذا خذل العبد فلم يعبد الله؛ ولم يستعن به، ولم يتوكل عليه، وكل إلى حوله وقوته. فيوليه الشيطان، وصد عن السبيل، وشقي في الدنيا والآخرة. ("مجموع الفتاوى"/ ٨/ ص٢٣٦).

وأما الاستعانة بغير الله بدون خضوع للمسئول فليس بشرك إذا كان المسئول حيّاً قادراً حاضراً. ومع ذلك هذا الفعل ينقص **كمال التوحيد** لأن الاستعانة بشخص تدل على الافتقار إليه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: أن الاستعانة بالغير والاعتضاد به ونحو ذلك تتضمن الافتقار إليه والاحتياج إليه. وكل من يحتاج إلى من يحمله أو يعينه على قيام ذاته وأفعاله فهو مفتقر إليه. ("مجموع الفتاوى"/ ٣/ ص ٨٥).

والافتقار لا ينبغي إلا إلى الله. فلذلك أمرنا الله تعالى أن نقول في كل ركعة في صلاتنا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾. وقال رسول الله ﷺ: «...**وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله**»، كما ذكره المؤلف رحمه الله. وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وغيره. قال الإمام مقبل الوادعي رحمه الله: صحيح لغيره ("الصحيح المسند" رقم (٦٨٥)).

والاستعانة نوع من المسألة، لا ينبغي صرفها إلى غير الله إلا عند ضرورة. فمن لم يكن كذلك نقص توحيده. وقال شيخ الإسلام رحمه الله: والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعا له كان أقرب إليه وأعز له وأعظم لقدره. فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله. وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره –إلى قوله:– فأعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم. **ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته ليكون الدين كله لله ولا يشرك به شيء**،... إلخ. ("مجموع الفتاوى" / ١/ ص ٣٩).

وأما الاستعانة التي بمعنى استخدام آلة لتعينه على نيل مطلوب أو دفع مكروه، فلا يخدش التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ يدل على أن العبادة لا تكون إلا لله. ولما كانت الاستعانة منها فلا يجوز إلا لله. فلماذا خصت بالذكر مع كونها من العبادة؟ في ذلك تنبيه على أن العبد لا يمكن أن يعبد الله كما ينبغي إلا بعونه. قال شيخ الإسلام رحمه الله: التوكل والاستعانة هي من عبادة الله لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يُعبد إلا بمعونته. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ١٧٦).

وقال رحمه الله: فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٦٩).

وفي الحديث أمر من رسول الله ﷺ: أن من أراد أن يسأل فليسأل الله، وكذلك في الاستعانة. قال الإمام ابن رجب رحمه الله: وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن

الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله – عز وجل –، فمن أعانه الله، فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، فإن المعنى: لا تحوّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة. فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله – عز وجل –، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه. وفي الحديث الصحيح عن النبي – ﷺ – قال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**». [أخرجه مسلم (٦٩٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه]. ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً. ("جامع العلوم والحكم" / ص٣٣٠/ ط. مكتبة أولاد الشيخ).

قال المؤلف رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾**).

الشرح:

الاستعاذة طلب العياذ والحرز. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: اعلم أن لفظ «**عاذ**» وما تصرف منها يدل على التحرز، والتحصن، والنجاة. **وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.** ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا- إلى قوله:- العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفرّ إليه، وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به واستجار به، والتجأ إليه -إلى قوله:- السين والتاء دالة على الطلب. فقوله: (أستعيذ بالله) أي: أطلب العياذ به. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص ٤٢٦).

ولا يجوز أن نستعيذ بغير الله. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: المستعاذ به وهو الله وحده، رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس الذي **لا ينبغي الاستعاذة إلا به**، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم، ويمنعهم من شرّ ما استعاذوا من شرّه. وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه **أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا** فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا**﴾ [الجن: ٦] جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: (أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه) فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أي: طغيانا، وإثما، وشرا، يقولون: (سدنا الإنس والجن). والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الإستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص ٤٢٩).

استدل المؤلف رحمه الله بقول الله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ على أن الاستعاذة من العبادة. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين: إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشرّ هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم

الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالا بصاحبه. وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف. والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى وغيرها. فتضمنت هاتان السورتان الإستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما، فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة، أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عموما. الثاني: شر الغاسق إذا وقب. الثالث: شر النفاثات في العقد الرابع شر الحاسد إذا حسد. ("بدائع الفوائد"/ ٢ / ص ٤٣١).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾. وفي الاستعاذة بما ذكر من هاتين السورتين في غاية المناسبة. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق، وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص ٤٣٠).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ الآية**).

الشرح:

الاستغاثة في هذا المقام طلب الغوث: وهو طلب النصرة، أو طلب الإنقاذ من الهلاك، أو طلب إزالة الشدة. قال الإمام القرطبي رحمه الله: الاستغاثة: طلب الغوث والنصر. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ٧/ ص ٣٧٠).

والاستغاثة كغيرها من العبادات، لا يجوز صرفها إلى غير الله أصلاً. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وكذلك الاستغاثة لا تكون إلا بالله، والتوكل لا يكون إلا عليه، وما النصر إلا من عند الله، فالنصر المطلق وهو خلق ما يغلب به العدو، لا يقدر عليه إلا الله. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٣٥٧).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، **وهذا أصل شرك العالم**، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، فضلا عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ٣٤٦).

والاستغاثة بالمخلوق إنما أبيحت عند الضرورة بشرط أن يكون ذلك المستغاث به حياً قادراً حاضراً، وأن يعتقد المستغيث أن الذي أغاثه لا يستطيع إغاثته إلا بإذن الله.

ثم هذه الآية المذكورة نزلت في غزوة بدر. قال أبو زميل (هو سماك الحنفي) حدثني عبدالله بن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**». فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾. فأمدّه الله بالملائكة. الحديث. (أخرجه مسلم (١٧٦٣)).

ثم قال المؤلف رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾**).

الشرح:

الذبح هو: شق حلق الحيوانات. (قاله الراغب رحمه الله "مفردات"/ ص ٣٥٥).

ثم استدل المؤلف رحمه الله بقول الله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣]

قال الإمام القرطبي رحمه الله: لما بيّن تعالى أن الكفار تَفرقوا بيّن أن الله هداه إلى الدين المستقيم وهو دين إبراهيم. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ٧/ ص ١٥٢).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: **﴿دِينًا قِيَمًا﴾** أي: قائمًا ثابتًا. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٣/ ص ٣٨٠).

قوله: **﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** قد مر بنا الكلام على الدين الحنيف الذي هو ملة إبراهيم عليه السلام، دين التوحيد. ثم إن موضع الشاهد من هذه الآية: **﴿وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأنعام/ ١٦٢] أن يكون النسك من العبادة فلا يكون إلا لله وحده. ومن معاني النسك: الذبح، والحج، وعموم العبادة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقوله تعالى: **﴿ونسكي﴾** قد ذكروا في تفسيره: الذبح لله، والحج إلى بيت الله. وذكروا أن لفظ «النسك» يتناول العبادة مطلقا. والله سبحانه قد بين في القرآن أن الذبح والحج كلاهما منسك. قال تعالى: **﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾** [الحج/ ٣٤]. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٧ / ص ٣٦٨).

وهذه الآية فيها إعلان الإقبال على توحيد الله ومخالفة دين المشركين، وهذا هو الدين الحنيف الإبراهيمي. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ [الكوثر:٢] أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٣/ ص ٣٨١).

استدل بهذه الآية الكريمة المؤلف رحمه الله على أن الذبح لا يكون إلا لله. فمن ذبح لغيره فقد أشرك شركا أكبر، مضاهاة لدين المشركين. قال شيخ الإسلام رحمه الله: كان عباد الشياطين والأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا. **فالذبح للمعبود غاية الذل و الخضوع له، ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ولا أن يسمى غير الله على الذبائح**. وحرم سبحانه ما ذبح على النصب وهو ما ذبح لغير الله، وما سمى عليه غير اسم الله وإن قصد به اللحم لا القربان. ولعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من ذبح لغير الله، ونهي عن ذبائح الجن، وكانوا يذبحون للجن. بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليه مطلقا، كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع. ("مجموع الفتاوى"/ ١٧/ ص ٤٨٤-٤٨٥).

قوله: ﴿**وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾، رسول الله ﷺ هو أول المسلمين من هذه الأمة على الإطلاق، ثم أصحابه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. والأنبياء عليهم السلام كلهم أيضا مسلمون. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة. وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٣/ ص ٣٨٢).

وقال الإمام الصنعاني رحمه الله: كل دم يراق لغير الله محرم، فهو عبادة، وكل عبادة لغير الله محرمة. وبه تعرف أن الحق ما ذهب إليه الشافعي في تحريم كل مذبوح أهلّ به لغير الله. ("مجموع رسائل الصنعاني"/ ص٥٤٤/ مكتبة أولاد الشيخ).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله»**).

الشرح:

إن الذبح له أحكام: فأما من ذبح شاة أو نحو ذلك باسم الله لمجرد بيع أو أكل فلا بأس عليه. قال الله تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [النحل/ ٥]. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الحيوان يحل إذا ذبح لأجل الأكل ويحرم إذ ذبح لغير الله. ("إعلام الموقعين"/ ٣ / ص١٠٩).

وأما من ذبح الحلال باسم الله لإكرام ضيف فقد أحسن، لعموم أدلة إكرام الضيوف، ولقول الله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾ [الذاريات/ ٢٤-٢٧].

وأما من ذبح باسم الله ولكن ليس على شريعة رسول الله ﷺ فقد ابتدع. عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**». (أخرجه البخارى (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) بلفظ: «**ما ليس منه**»).

وأما من ذبح لغير الله فإنه مشرك ملعون، كما قال رسول الله ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثا، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير المنار**». (أخرجه مسلم (١٩٧٨) عن علي رضي الله عنه).

قال الإمام النووي رحمه الله: وأما لذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أولعيسى صلى الله عليهما أو للكعبة ونحو ذلك فكل هذا حرام ولاتحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلما أو نصرانيا أو يهوديا نص عليه الشافعى واتفق عليه أصحابنا فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفرا فان كان الذابح مسلما قبل ذلك صار بالذبح مرتداً. ("المنهاج"/ ١٣/ ص١٤١).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾**).

الشرح:

النذر هو: أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر. ("مفردات القرآن"/ ص ١٤٢٨).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: النذر: هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ١٩/ ص ١٢٧).

ثم إن الدليل الذي ذكره المؤلف رحمه الله يدل على أن النذر من العبادة، فلا يجوز صرفه لغير الله. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له. ("إغاثة اللهفان"/ ١/ ص ٢١٢).

والنذر على قسمين: نذر الطاعة ونذر المعصية. فنذر الطاعة على قسمين: النذر المطلق فلا يكون بمقابل، والنذر المقيد بمقابل. فالنذر المطلق كأن يقول: (لله عليّ أن أصلي ركعتين). فعليه وفاؤه.

والنذر الذي بالمقابل كأن يقول: (لله عليّ أن أصلي ركعتين إن شفاني الله)، فهذا مكروه، لا يأتي بخير وإن كان لله. عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج من البخيل**». (أخرجه البخاري (٦٦٠٨) ومسلم (١٦٣٩) واللفظ له).

قال القرطبي رحمه الله: هذا النذر محله أن يقول: إن شفى الله مريضي، أو قدم غائبي فعليَّ عتق رقبة، أو صدقة كذا، أو صوم كذا. ووجه هذا النهي هو: أنه لما وقف فعل هذه القربة على حصول غرض عاجل ظهر: أنه لم يتمحض له نيَّة التقرب إلى الله تعالى بما صدر منه، بل سلك فيها مسلك المعاوضة. ألا ترى أنَّه لو لم يحصل غرضه لم يفعل؟! وهذه حال البخيل؛ فإنَّه لا يخرج من ماله شيئًا إلا بعوض عاجل يربي على ما أخرج. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه بقوله ﷺ: «**وإنما يستخرج به من البخيل**». ما لم يكن البخيل يخرجه. ثم ينضاف إلى هذا اعتقاد جاهل يظن: أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض،

أو: أن الله تعالى يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر. وإليهما الإشارة بقوله ﷺ: «**فإن النَّذر لا يردُّ من قدر الله شيئًا**». وهاتان جهالتان. فالأولى تُقارب الكفر. والثانية خطأ صراح. وإذا تقرر هذا، فهل هذا النهي محمول على التحريم، أو على الكراهة؛ المعروف من مذاهب العلماء الكراهة. ("المفهم"/ ١٥ / ص٥٥).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد ثبت في "الصحيح" عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر، وقال: «**إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل**». فإذا كان النذر –وإن كان لله– لا يأتي بخير، **فكيف بالنذر للمخلوق**؟ ولكن النذر لله يجب الوفاء به إذا كان في طاعة، وإذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء. وإنما تنازعوا هل فيه بدل أو كفارة يمين؟ أم لا؟ لما البخاري في صحيحه عن النبي أنه قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**». [أخرجه البخاري (٦٦٩٦) عن عائشة رضي الله عنها]. فمن ظن أن النذر للمخلوقين يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة فهو من الضالين كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة أو تدفع عنهم مضرة اهـ. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٨١-٨٢).

وقال رحمه الله: فمن نذر لغير الله فهو **مشرك أعظم من شرك الحلف بغير الله**، وهو كالسجود لغير الله. ("مجموع الفتاوى"/ ٣٣/ ص ١٢٣).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في أنواع الشرك: ومن أنواعه: النذر لغير الله، **فإنه شرك**، وهو أعظم من الحلف بغير الله. فإذا كان من حلف بغير الله فقد أشرك، فكيف بمن نذر لغير الله؟ ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ٣٤٥).

قال المؤلف رحمه الله: (**ودليل التوبة قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا﴾ الآية**).

الشرح:

التوبة لغة: الرجوع. وفي الاصطلاح كما قال الراغب رحمه الله: والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة. ("المفردات"/ ص ١٤٩).

فالتوبة من العبادات، لا تجوز إلا إلى الله. قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]. قال الإمام القرطبي رحمه الله: أي ليس أحد يغفر المعصية ولا يزيل عقوبتها إلا الله. ("الجامع"/ ٤/ ص٢١١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء، والاستغاثة، والخشية، والرجاء، والإنابة، والتوكل، **والتوبة، والاستغفار، كل هذا لله وحده لا شريك له**. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٧٤).

وقال رحمه الله: وقد بلغ الشيطان بهذه البدع إلى **الشرك العظيم** في كثير من الناس، حتى إن منهم من يعتقد أن زيارة المشاهد التي على القبور – إما قبر لنبي ، أو شيخ ، أو بعض أهل البيت – أفضل من حج البيت الحرام، ويسمي زيارتها: الحج الأكبر. –إلى قوله:– **كثير من هؤلاء يسأل الميت والغائب، كما يسأل ربه، فيقول: اغفر لي وارحمني، وتب عليّ**، ونحو ذلك. ("الاقتضاء"/ ٢/ ص٢٤١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن أنواعه: **التوبة للشيخ فإنها شرك عظيم فإن التوبة لا تكون إلا لله**، كالصلاة، والصيام، والحج، والنسك، فهي خالص حق الله. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ٣٤٥).

والآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله دليل على أن التوبة من العبادة، وأنها واجبة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وأمر جميع المؤمنين من أولهم إلى آخرهم بالتوبة، ولا يستثني من ذلك أحد، وعلق فلاحهم بها. ("شفاء العليل"/ ص ١١٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ. وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**).

الشرح:

قوله رحمه الله: (**معرفة دين الإسلام**). قال شيخ الإسلام رحمه الله: والدين مصدر دان يدين دينا إذا خضع وذلّ. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٢٦٣).

والإسلام يتضمن توحيد الله بالعبادة، فلا يشرك به أحد، مع امتثال بقية أوامره واجتناب نواهيه، ومع البراءة من المشركين. قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ** -إلى قوله:- **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف/ ٣٧-٤٠].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ**﴾ [الممتحنة/ ٤].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن الإسلام هو الاستسلام، وهو يتضمن الخضوع لله وحده، والانقياد له، والعبودية لله وحده. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٤٢٦).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في معنى السليم: ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة، لأنه الاستسلام والإنقياد لله تعالى، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه، وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه، ليس فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به. ("بدائع الفوائد"/ ٢/ ص ٣٦٢).

وقول المؤلف رحمه الله: (، **وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ**)

الشرح:

دين الإسلام له ثلاث مراتب: الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، على حسب تحقيق العبادة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله. وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله، وعلت درجته. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ١٧٦).

ثم لكل مرتبة أركان. والأركان جمع ركن. ورُكْن الشيء جانبه الأَقوى. والرُّكْنُ الناحية القوية وما تقوّى به من مَلِكٍ وجُنْدٍ وغيره. ("لسان العرب"/ ١٣/ ص ١٨٥).

فأركان العبادات: جوانبها التي عليها مبناها. ("مفردات ألفاظ القرآن"/ ص ٤١٠).

قول المؤلف رحمه الله: (**المرتبة الأولى: الإسلام. فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاء الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ الله الْحَرَامِ. فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إله إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**).

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله أركان الإسلام الخمسة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أخرجه البخاري (٨) ومسلم (١٦). ثم ذكر الركن الأول وهو الشهادتين. والشهادة تتضمن الإخبار المبني على العلم. قال الراغب رحمه الله: والشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر. ("مفردات ألفاظ القرآن"/ ٢/ ص ٤٧).

وليس المراد بشهادة (أن لا إله إلا الله) مجرد كلام اللسان، بل لا بد من التحقيق باعتقاد القلب والتطبيق بالجوارح. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضى أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالى إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهي عما نهى الله عنه، وإنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله. وهذا ملة إبراهيم، وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين. ("مجموع الفتاوى"/ ٨/ ص ٣٣٧).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله دليلاً على شهادة التوحيد، وهو أيضاً دليل على فضل العلماء.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: استشهد سبحانه بأولي العلم على أجلّ مشهود عليه، وهو توحيده، فقال: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران/ ١٨]. وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه، **أحدها**: استشهادهم دون غيرهم من البشر، **والثاني**: اقتران شهادتهم بشهادته. **والثالث**: اقترانها بشهادة ملائكته. **والرابع**: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول. ("مفتاح دار السعادة"/ ١/ ص ٤٨).

وهذه الآية تدل على أن الله هو متولي العدل بين عباده. قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: وأما قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، فإنه بمعنى: أنه الذي يلي العدل بين خلقه. ("جامع البيان"/ ٦/ ص ٢٧٠).

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تكرار كلمة التوحيد لحكمة بديعة. قال الإمام القرطبي رحمه الله: كرّر لأن الأولى حلّت محلّ الدعوى، والشهادة الثانية حلّت محل الحكم. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ٤/ ص ٤٣).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق. ("تفسير القرآن العظيم" / ٢/ ص ٢٤).

وقول تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال شيخ الإسلام رحمه الله بعد ذكر الآية: والعزة تتضمن القدرة والشدة والامتناع والغلبة. تقول العرب: عز يعَزّ بفتح العين إذا صلب، وعز يعِزّ بكسرها إذا امتنع، وعز يعُزّ بضمّها إذا غلب. فهو سبحانه في نفسه قوي متين، وهو منيع لا ينال، وهو غالب لا يغلب. والحكيم يتضمن حكمه، وعلمه، وحكمته فيما يقوله، ويفعله، فإذا أمر بأمر كان حسنا، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً، فهو حكيم في إرادته، وأفعاله، وأقواله. ("مجموع الفتاوى"/ ١٤/ ص ١٨٠).

والآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله تخبرنا بأن الله شهد أن لا إله إلا هو، فأعلن وبيّن أنه هو وحده المستحق أن يعبد، فتتضمن هذه الشهادة الأمر بإفراده بالعبادة، والنهي عن الشرك فيها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبيّن وأعلم أن ما سواه ليس بالإله، فلا يُعبد، وأنه وحده الإله الذى يستحق العبادة. وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه، فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي. ("مجموع الفتاوى"/ ١٤/ ص ١٧١).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، [وَحَدُّ النَّفْيِ] «لا إله» نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله. «إِلا اللهُ» مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ لله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ**).

الشرح:

شرع المؤلف رحمه الله في تفسير كلمة (لا إله إلا الله). قال ابن فارس رحمه الله: (أله) الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبُّد. فالإله الله تعالى، وسمّيَ بذلك لأنّه معبود. ويقال تألّه الرجُل، إذا تعبّد. قال رؤبة: لله دَرُّ الغانِياتِ المُدَّهِ * سَبَّحْنَ واسترْجَعْنَ مِن تَأَلُّهِي. ("مقاييس اللغة"/ ١/ ص١٢٧/ دار الجيل).

فتفسير (لا إله إلا الله) بـ: (لا معبود حق إلا الله)، أو (لا معبود بحق إلا الله)، أو (لا معبود مستحق إلا الله). هذا هو الدين الحق القيم. قال الله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا الله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف/ ٤٠].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع، والمقصود منها لا يحصل، فهو باطل، واعتقاد ألوهيتها باطل، أي غير مطابق، واتصافها بالإلهية في أنفسها باطل، لا بمعنى أنه معدوم . ("مجموع الفتاوى"/ ٥ / ص٥١٦).

وكما أن الله هو المتفرد بالملك، فكذلك هو المتفرد بالألوهية. قال تعالى: ﴿**فَتَعَالَى الله الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون/ ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**﴾ [فاطر/ ١٣]، وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾ [الزمر/ ٦].

فالملك الحق المبين هو المستحق أن يُعبد.

قول المؤلف رحمه الله: (**وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**).

الشرح:

هذا يدل على أن قول (لا إله إلا الله) يتضمن البراءة من جميع الآلهة غير الله. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه. ("الجواب الكافي"/ ص ١٣٨).

وقوله: ﴿**فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**﴾. قال الإمام القرطبي رحمه الله: قال ذلك ثقة بالله وتنبيها لقومه أن الهداية من ربه. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ١٦/ ص٧٦).

وقوله: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾. قال الإمام ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي جعل هذه الموالات لله والبراءة من كل معبود سواه كلمته باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم، بعضهم عن بعض، وهي كلمة (لا إله إلا الله) وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة، وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر، وعذاب النار، وهي النشور الذي لا تدخل الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها تنقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الاسلام، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان. ("الجواب الكافي"/ ص ١٣٨).

وقوله: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله: أي قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ١٦/ ص٧٧).

قول المؤلف رحمه الله: (**وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**).

الشرح:

في هذه الآية أيضاً بيان لمعنى كلمة لا إله إلا الله. قوله: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا**﴾ أمرٌ بالدعوة. فلا بد من النشاط في نشر الإسلام لننصر دين الله في الأرض. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل. ("مجموع الفتاوى/ ٢٨/ ص٦١٣).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله : هذا الخطاب يعمّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٢/ ص ٥٥).

وقوله تعالى: ﴿**كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً**﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله: يعني: إلى كلمة عدل بيننا وبينكم، والكلمة العدل، هي أن نوحِّد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، فلا نشرك به شيئًا. (جامع البيان/ ٦/ ص٤٨٣).

وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ**﴾، قال الإمام القرطبي رحمه الله: أي لا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى. ("الجامع لأحكام القرآن" / ٤/ ص ١٠٦).

وقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ يدل على الثبات أمام أعداء الإسلام. قال الإمام القرطبي رحمه الله: أي متصفون بدين الإسلام، منقادون لأحكامه، معترفون بما لله عليه، علينا في ذلك من المنن والإنعام، غير متخذين أحداً ربا لا عيسى، ولا عزيرا، ولا الملائكة، لأنهم بشر مثلنا، محدث كحدوثنا، ولا نقبل من الرهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرمه الله علينا، فنكون قد اتخذناهم أرباباً. ("الجامع لأحكام القرآن" / ٤/ ص ١٠٧).

وقول المؤلف رحمه الله: (**وَدِليلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**).

الشرح:

هذه الشهادة الثانية التي لا يصح إسلام المرء إلا بها: (محمد رسول الله). وهذه الآية الكريمة دليل على إثبات رسالة محمد ﷺ. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ**﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: منكم وبلغتكم. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٤/ ص ٢٤١).

وقال رحمه الله: وقوله: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يَعْنَتُ أمته ويشق عليها. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٤/ ص ٢٤١).

فالعنت هي دخول المشقة ولقاء الشدة، كما في "لسان العرب". وقال الإمام الطبري رحمه الله: وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى. ("جامع البيان" / ١٤/ ص ٥٨٤).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٤/ ص ٢٤١).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: ﴿**بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾ الرؤوف: المبالغ في الرأفة والشفقة. ("الجامع"/ ٨/ ص ٣٠٢).

فمحمد ﷺ جاءنا رسولاً ومبشراً ونذيراً. وشفقته ورحمته تقتضي سعيه في إيصال الخيرات إلى أمته وإنذارهم الشرور والسيئات. قال الإمام السعدي رحمه الله: ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ**﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ("تيسير الكريم الرحمن"/ ص ٣٥٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعَ**).

الشرح:

من ضمن الشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ : امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره، والاقتداء بهديه، فهكذا مقتضى الإيمان به. والدليل ما سيذكره المؤلف رحمه الله. وقال الله تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾ [النساء: ٨٠].

قال القاضي عياض رحمه الله: فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه، قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به. وقالوا: ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه. ("الشفا"/ ٢ / ص٦).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم .وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا، وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أوِّلوها له يفقهها. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: **فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله. ومحمد ﷺ فرق بين الناس**. (أخرجه البخاري ((٧٢٨١)).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: نحن مأمورون أن نتبع الرسول، ونطيعه، ونتأسى به. فالحلال ما حلله الله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ٢٣٤).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾** [البينة: ٥]).

الشرح:

ذكر الؤلف رحمه الله أساس الدين القيم: التوحيد، والصلاة، والزكاة.

فالصلاة في اللغه: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿**وصلِّ عليهم**﴾ أي: ادع لهم. وفي الشرع: أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم. سميت صلاة لاشتمالها على الدعاء. (راجع "الروض المربع" / لمنصور البهوتي الحنبلي/ ص ١٤).

فالصلاة لها منقبة عظيمة في الإسلام، فمن تركها فقد هدم الدين. عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لينقضن عرا الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضاً الحكم وأخرهن الصلاة**». (أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (٢٢٢١٤) وحسنه الإمام الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين" رقم (٨٩٢)).

وعن جابر رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**». (أخرجه مسلم (٢٥٦)).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٥/ ص ٢٤٣).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له والتواضع له والذلّ له. ("مجموع الفتاوى"/ ١٤/ ص ٢١٤).

وأما الزكاة فهي في اللغة: الزيادة والنماء. وفي الشرع: إخراج جزء مقدر من مال مخصوص إلى جهة مخصوصة على جهة القربة. (راجع "التعيين في شرح الأربعين"/ للإمام سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي/ الحديث الثاني/ ص٧٩/ المكتبة المكية).

والزكاة من أعظم العبادات المالية، ومن علامات الرحمة بالعباد، وهي مقترنة كثيرا مع الصلاة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وجعل الإسلام مبنياً على أركان خمسة، ومن آكدها الصلاة وهي خمسة فروض، وقرن معها الزكاة. فمن آكد العبادات الصلاة، وتليها الزكاة، ففي الصلاة عبادته، وفي الزكاة الإحسان إلى خلقه. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٥/ ص ٦).

وقوله: ﴿**ليعبدوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ دين جميع الأنبياء عليهم السلام يدور حول الأمر بإفراد الله بالعبادة. قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وما أمر الله هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، يقول: مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك، فأشركت اليهود بربها بقولهم إن عُزَيرا ابن الله، والنصارى بقولهم في المسيح مثل ذلك، وجحودهم نبوة محمد ﷺ. ("جامع البيان"/ ٢٤/ ص ٥٤١).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿**وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿**وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٤٥٧).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ أي: الملة القائمة العادلة، أو: الأمة المستقيمة المعتدلة. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٤٥٧).

والشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾. والإخلاص لله هو إفراده في العبادة تنقيتها من الشوائب، هذا هو معنى لا إله إلا الله. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ١١٠).

قول المؤلف رحمه الله: (**ودَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [البقرة: ١٨٣]).

الشرح:

الصوم في اللغة: الإمساك، وفي الشرع: إمساك ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس عن المفطرات الشرعية بنية القربة. (راجع "التعيين"/ للطوفي الحنبلي/ ص٨٠/ المكتبة المكية).

والآية المذكورة دليل على وجوب الصوم، وفيه حِكَم ومنافع ترجع إلى العباد.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة وآمرًا لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وَليَجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان. ("تفسير القرآن العظيم"/ ١/ ص٤٩٧).

قول المؤلف رحمه الله: (**ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]**).

الشرح:

الحج في اللغة: القصد، وفي الشريعة: قصد المسجد الحرام وما حوله لأداء النسك. (كما في "التعيين في شرح الأربعين"/ للطوفي الحنبلي/ الحديث الثاني/ ص٧٩-٨٠/ المكتبة المكية).

والحج عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله، ولا بد قصده إلى بيته الحرام. فمن حج إلى قبر أو مشهد فقد أشرك بالله ونقض شهادته (أن لا إله إلا الله)، وابتدع في الشريعة فنقض شهادته (أن محمدا رسول الله). قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي إذا زرنا قبور المسلمين: أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية، والمغفرة. فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، وسموا قصدها حجا، واتخذوا عندها الوقفة، وحلق الرأس، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك وأولياءه الموحدين له الذين لم يشركوا به شيئا بذمّهم وعيبهم، ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ٣٤٦).

ثم استدل المؤلف رحمه الله بهذه الآية على وجوب الحج على من استطاع عليه.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: اللام في قوله ﴿**ولله**﴾ لام الإيجاب والإلزام، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿**على**﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال عربي: لفلان على كذا، فقد وكده وأوجبه. فذكر الله تعالى الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب تأكيدا لحقه وتعظيما لحرمته. ولا خلاف في فريضته، وهو أحد قواعد الإسلام، وليس يجب إلا مرة في العمر. ("الجامع"/ ٤/ ص ١٤٢).

وقال الإمام ابن الملقن رحمه الله: والاستطاعة: القوة على الشيء والتمكن منه –إلى قوله:– فائدة التقييد في الحج: وجود المشقة فيه ما ليس في غيره. ("المعين على تفهم الأربعين"/ لابن الملقن / ص٩٠/ ط. الفاروق).

وقوله : ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين**﴾. قال الإمام الشوكاني رحمه الله: وفي قوله : ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين**﴾ من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة، وخذلانه، وبعده من الله سبحانه ما يتعاظمه سامعه، ويرجف له قلبه، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم، ومصلحتهم، وهو تعالى شأنه، وتقدس سلطانه غني لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع . ("فتح القدير" / ١/ ص ٤٩٩).

وهذه الآية تدل على أن من جحد وجوب حج البيت فإنه كافر. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس: الشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت فإنه كافر. ("الجواب الصحيح"/ ٢ / ص١٢٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ. وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ لا اله إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ**).

الشرح:

والإيمان لغة: الإقرار مع التصديق. وشرعاً كما قاله الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله: وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح؛ يزيد ذلك بالطاعة، وينقص بالمعصية نقصاً عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان، ولا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة، إلخ. (مقدمة "الجامع" / ص١١٠-١١١/ ط. الرسالة).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله متن حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يؤكد قول أهل السنة في الإيمان أنه عمل القلب، واللسان والجوارح: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**». (أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) واللفظ له).

قال الإمام النووي رحمه الله: والمراد بالأذى كل ما يؤذي من حجر أو مدر أو شوك أو غيره. ("المنهاج" / ١٨/ ص١٦١).

وأما الحياء، قال الإمام ابن رجب رحمه الله: واعلم أن الحياء نوعان، أحدهما: ما كان خلقا وجبلة غير مكتسب، وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»، فإنه يكفّ عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار -إلى قوله:- والثاني: ما كان مكتسباً من معرفة الله، ومعرفة عظمته وقربه من عباده، واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهذا من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان. ("جامع العلوم والحكم"/ الحديث العشرون).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله**)،

الشرح:

ابتدأ المؤلف رحمه الله بالإيمان بالله لأنه أصل كل شيء. وهذا الإيمان يتضمن أموراً عظيمة. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وتضمن إيمانهم بالله إيمانَهم بربوبيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وأسمائه الحسنى، وعموم قدرته ومشيئته، وكمال علمه وحكمته، –إلى قوله:– فإن كمال الإيمان بالله يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه، وتنزيهه عما نزه نفسه. ("مجموع الفتاوى"/ ١٤/ ص ١٣٥).

قلت –وفقني الله–: فالإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء: **الإيمان بوجود الله**، وبربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته. وتفاصيله مذكورة في كتاب **"آيات الله الباهرات في الأرض والسماوات"**.

والإيمان بالله أمرٌ فطريٌّ. قال الله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم/ ٣٠].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فأخبر أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفاً، وهوعبادة الله وحده لا شريك له. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص ١٤٦).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق، فإنهم مفطورون على أنه أجلّ وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء. ("مجموع الفتاوى"/ ٦/ ص ٧٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم. ("إغاثة اللهفان"/ ٢/ ص٢٣٠).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمَلائِكَتِهِ**)،

الشرح:

الملائكة جمع ملك. وقيل: مفعل مِن: «لاك» إذا أرسل، وقيل: من الألوكة: وهي الرسالة. (راجع "المعين على تفهم الأربعين"/ لابن الملقن/ الحديث الثاني/ ص٩١/ ط. الفاروق).

فالملائكة رسل الله وعباده المكرمون المعصومون الموكلون ببعض الوظائف، كما قال الله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ [فاطر: ١]. وقال سبحانه عنهم: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. والأدلة معروفة.

والإيمان بالملائكة واجب. فنحن نؤمن بوجودهم، وأنهم خلقهم الله من نور، ونؤمن بما ذكر الله ورسوله من أسمائهم، وصفاتهم، ووظائفهم، وأنهم معصومون من الخطأ.

قال الإمام سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي رحمه الله: وأما الملائكة فيجب الإيمان بأنهم عباد مكرمون، وأنهم خلقوا من نور، وأنهم مطيعون معصومون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. فقولنا: عباد، رد على من تألههم كالكفار، وقولنا: مكرمون، رد على من تنقصهم كاليهود. ("التعيين في شرح الأربعين"/ للطوفي الحنبلي/ الحديث الثاني/ ص٧٤/ المكتبة المكية).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما قوله: «**وملائكته**» فأن تؤمن بمن سمى الله لك منهم في كتابه، وتؤمن بأن لله ملائكة سواهم لا يعرف أسماءهم وعددهم إلا الذي خلقهم. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٣١٢).

وقال القاضي عياض رحمه الله: أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء –ثم ذكر الخلاف في عصمتهم ثم قال:– والصواب عصمة جميعهم وتنزيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبتهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم. ("الشفا"/ ٢/ ص١٧٤–١٧٥).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَكُتُبِهِ**)،

الشرح:

الكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع، ومنه قيل: كتيبة، لاجتماعها. الكتيبة القطعة العظيمة من الجيش والجمع الكتائب. (راجع "لسان العرب" (١/ ص٦٩٨) وغيره).

والإيمان بالكتب السماوية يتضمن الإيمان بأسمائها المذكورة في القرآن والسنة، وأنها كلها من عند الله، وأن لله غيرها من الكتب. والأدلة على ذلك معروفة. قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما قوله «**وكتبه**» فأن تؤمن بما سمى الله من كتبه في كتابه من التوراة، والإنجيل، والزبور خاصة، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتبا أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها. وتؤمن بالفرقان، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب. إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٣١٢-٣١٣).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَرُسُلِهِ**)،

الشرح:

والرسول: هو المبعوث. وهو رجل أوحى الله إليه وبعثه إلى قوم مخالفين للحق. وأما النبي: هو رجل أوحى الله إليه ولم يُبعث إلى المخالفين، بل يُبعث إلى قوم مؤمنين بالرسول السابق للإرشادات والتوجيهات. راجع كلام شيخ الإسلام رحمه الله في "النبوات" (ص١٨٤-١٨٥).

والإيمان بالرسل يتضمن الإيمان مجملاً بجميع المرسلين علمنا أسماءهم أو لم نعلم، وأنهم مرسلون من عند الله بالحق. ونحن نؤمن بمن أرسل إلينا إيماناً مفصلاً مع طاعته واتباعه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما قوله «**ورسله**» فأن تؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله، وتؤمن بأن لله سواهم رسلا وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم. وتؤمن بمحمد، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل. إيمانك بسائر الرسل إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد إقرارك به، وتصديقك إياه دائبا على ما جاء به، فاذا اتبعت ما جاء به، أدّيت الفرائض، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٣١٣).

ونحن نؤمن بأن الأنبياء معصومون، على تفصيل العلماء. قال القاضي عياض رحمه الله: فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش و الكبائر الموبقات. ومستند الجمهور في ذلك الإجماع الذي ذكرناه، وهو مذهب القاضي أبي بكر ومنعها غيره بدليل العقل مع الإجماع و هو قول الكافة و اختاره الأستاذ أبو اسحاق. وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة و التقصير في التبليغ لأن كل ذلك تقتضي العصمة منه المعجزة مع الإجماع على ذلك من الكافة. ("الشفا"/ ٢/ ص١٢٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**)،

الشرح:

الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بجميع ما هو كائن بعد الموت، من حياة القبر وما جرى فيه، ونفخ الصور الأول والثاني، والوقوف بالعرصات، ومجيء الرب تعالى لفصل القضاء، والحساب والميزان، والمرور على الصراط، وحلول الشفاعة، ودخول الجنة أو النار، وغير ذلك. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما قوله «**واليوم الآخر**» فأن تؤمن بالبعث بعد الموت، والحساب، والميزان، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وبكل ما وصف الله به يوم القيامة. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص ٣١٣).

قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات/ ٣٤-٣٩]. وقال تعالى فيها: ﴿**إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ [المرسلات/ ٣٢-٣٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم**». (أخرجه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٧٣٤٤)).

وسيأتي مزيد الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

قول المؤلف رحمه الله: (**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**).

الشرح:

قال الراغب رحمه الله: والقدر والتقدير: تبيين كمية الشيء. ("المفردات" / ٣٩٥).

والإيمان **بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** يتضمن الإيمان بأن كل شيء بعلم الله، وأن جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة مكتوب في اللوح المحفوظ، وأنه ما من شيء مخلوق إلا تحت مشيئة الله، وأن المخلوقين وأفعالهم كل ذلك مخلوق لله.

وأما المرتبة الأولى: العلم.

قال الله تعالى: ﴿**ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة/ ٩٧].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فأما المرتبة الأولى وهي العلم السابق. فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة. وخالفهم مجوس الأمة. وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها... إلخ. ("شفاء العليل"/ ص ٥٤/ دار ابن الهيثم).

وأما الثانية: مرتبة الكتابة.

والدليل قول الله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد/ ٢٢].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**». **قال:** «**وعرشه على الماء**». (أخرجه مسلم (٢٦٥٣)).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: **وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث** أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب. ("شفاء العليل" / ص ٧٤-٧٥/ دار ابن الهيثم).

وأما المرتبة الثالثة: المشيئة

قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ [البقرة/ ٢٥٣].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهذه المرتبة قد دل عليها **إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله والفطرة التي فطر الله عليها خلقه وأدلة العقول والعيان**، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، **والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون** على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. اهـ المراد ("شفاء العليل" / الباب الثاني عشر/ ص٧٨-٧٩/ دار ابن الهيثم).

وأما المرتبة الرابعة: الخلق

قال الله تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان/ ٢].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهذا **أمر متفق عليه بين الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار**، اهـ المراد. ("شفاء العليل" / ص٩١).

وعدم الإيمان بالقدر كفر. قال ابن عمر رضي الله عنهما فيمن لا يؤمن بالقدر: **فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر**. (أخرجه مسلم (٨)).

وقال الإمام الآجري رحمه الله: فكل العباد يسعون في أمر قد فرغ منه ، والإيمان بهذا واجب ، ومن لم يؤمن به كفر. ("الأربعون حديثا" / للآجري / ص ٧).

وأما من يحتج على الله بالقدر فإنه سلك طريق إبليس. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وتلك حجة داحضة لا تنفعه، بل تزيده عذابا وشقاء، كما زادت إبليس لما قال: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الأعراف/ ١٦]، وقال: ﴿**رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الحجر/ ٣٩]، وكالذين يقولون يوم القيامة: ﴿**لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزمر/ ٥٧]، وكالذين قالوا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام/ ١٤٨]. فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه، وأعرض عما أمر الله به من التوبة والاستغفار والاستعانة بالله والاستعاذة به واستهدائه، **كان من أخسر الناس في الدنيا و الآخرة**. ("مجموع الفتاوى"/ ١٤/ ص ٢٦٤-٢٦٥).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]). ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]**).

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى: ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ**﴾ الآية، وفيها قواعد عظيمة. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: اشتملت هذه الآية الكريمة، على جمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، – إلى قوله:– فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله، وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿**وَالْكِتَابِ**﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ الله به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ("تفسير القرآن العظيم" / ١/ ص ٤٨٥-٤٨٦).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ على ثبوت قدر الله على جميع المخلوقين وجميع أعمالهم. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، كقوله: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان:٢] وكقوله: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ [الأعلى :١-٣] أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرْقة القَدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٧/ ص ٤٨٢).

قول المؤلف رحمه الله: (**الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ. رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما في الحديث: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]**).

الشرح:

هذه أعلى مراتب الدين. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وجعل النبي إحسان العبودية أعلى مراتب الدين. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ١٠٣).

الإحسان في الجملة ينقسم إلى قسمين: الأول: الإحسان إلى الخالق بتحسين عبادته ظاهرة وباطنة، وهذا هو المراد في الحديث. والثاني: الإحسان إلى المخلوقين ببرّهم وإعطاء حقوقهم. وهذا القسم الثاني ينقسم إلى قسمين أيضا، وهما: الإحسان إلى نفسك، والإحسان إلى غيرك من عباد الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والإحسان ههنا هو فعل المأمور به سواء كان إحساناً إلى الناس، أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان: الإيمان، والتوحيد، والإنابة إلى الله تعالى، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا، ومهابة، وحياء، ومحبة، وخشية. فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريب من صاحبه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه؟ ("مجموع الفتاوى"/ ١٥ / ص ٢٨).

وقال الراغب الأصبهاني رحمه الله: والإحسان يقال على وجهين، أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: (أحسن إلى فلان)، والثانى: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنا أو عمل عملا حسنا، - إلى قوله:- وقوله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ فالإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالاحسان زائد على العدل، ... إلخ. ("مفردات غريب القرآن"/ ص ١١٩).

وقال الإمام ابن رجب رحمه الله: فقوله ﷺ في تفسير الإحسان: «**أنْ تعبدَ الله كأنّكَ تراهُ ...**» إلخ يشير إلى أنَّ العبدَ يعبُدُ الله تعالى على هذه الصِّفة ، وهي استحضارُ قُربِهِ ، وأنَّه بينَ يديه كأنَّه يراهُ ، وذلك يُوجبُ الخشيةَ والخوفَ والهيبةَ والتَّعظيمَ، كما جاء في رواية أبي هريرة : «**أنْ تخشى الله كأنَّكَ تراهُ**». ويوجب أيضاً النُّصحَ في العبادة، وبذل الجُهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها. ("جامع العلوم والحكم" / ص٨٤/ دار ابن رجب).

وإحسان العبودية لله له ركن واحد، ومع ذلك ذكر النبي ﷺ أن له طريقتين، تسهيلا للعباد في الترقي إلى أعلى المقام.

قال الإمام ابن رجب رحمه الله: فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله في العبادة، واستحضار قربه من عبده، حتى كأن العبد يراه، فإنه قد يشق ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه، ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا حقق هذا المقام، سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته، حتى كأنه يراه. وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه، فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه، فليستحي من نظره إليه. ("جامع العلوم والحكم" / الحديث الثاني/ ص٨٦).

ثم ذكر المؤلف قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾، وهو دليل على مشروعية الإحسان وفضيلته، وهو أن الله معهم معية خاصة، أي: بالتأييد، والنصر، والكلاءة.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: والمحسن من صحح عقد توحيده وأحسن سياسة نفسه وأقبل على أداء فرائضه وكفى المسلمين شره. ("الجامع لأحكام القرآن"/ البقرة: ١٥٨/ ١/ ص٤١٥).

قول المؤلف رحمه الله: (**وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]. **وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾** [يونس: ٦١]).

الشرح:

الآية الثانية دليل على معية الله أيضاً، أي: أن الله مع جميع عباده بالرؤية، والسمع والعلم. قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولفظ «مع» جاءت في القرآن عامة وخاصة. فالعامة في هذه الآية، وفى آية المجادلة: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾** [المجادلة/ ٧]. فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم، ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه .

وأما المعية الخاصة ففي قوله تعالى: **﴿إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾** [النحل/ ١٢٨]. وقوله تعالى لموسى: **﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾** [طه/ ٤٦]، وقال تعالى: **﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾** [التوبة/ ٤٠]، يعني: النبي وأبا بكر رضى الله عنه. فهو مع موسى وهارون دون فرعون، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين. فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك.

(انتهى من "مجموع الفتاوى"/ ١١/ ص ٢٤٩-٢٥٠).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾** أي: في جميع أمورك؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦/ ص ١٧١).

هذا هو موضع الشاهد: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي: هو معتن بك. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦/ ص١٧١).

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾: قال قتادة: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: في الصلاة، يراك وحدك ويراك في الجَمْع. وهذا قول عكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن البصري. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦/ ص ١٧١).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦/ ص ١٧١).

ثم استدل المؤلف رحمه الله بالآية الثالثة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية على كمال علم الله واعتنائه بخلقه، فمن استحضر هذا في قلبه في جميع شئونه فقد بلغ الإحسان في العبادة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى الله رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود : ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء :

٢١٧ -٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون.

(انتهى من "تفسير القرآن العظيم"/ ٤/ ص ٢٧٧).

فاعلم أن من عبد الله محسناً في عبادته فإن الله يسهديه إلى صراطه المستقيم. قال الإمام الآجري رحمه الله: فاعلم أنه من عبد الله عز وجل فيعلم أن الله عز وجل مطلع على عمله، يعلم سره وعلانيته، ويعلم ما تخفي من عملك وما تبديه، وما تريد بعلمك أالله تريد أم غيره؟، ﴿**يعلم السر وأخفى**﴾، ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ ، ﴿**يعلم ما أنتم عليه**﴾ فاحذروه ، فمن راعى هذه بقلبه وبعلمه خشي من الله عز وجل وخافه وعبده كما أمره ، فإن كنت عن هذه المراعاة في غفلة فإنه يراك، ثم إليه مرجعك فينبئك بما كنت تعمله ، فاحذر الغفلة في عبادتك إياه ، واعبده كما أمرك لا كما تريد، واستعن به ، واعتصم به ، فإنه لا يقطع من لجأ إليه وقد ضمن لمن اعتصم به أن يهديه إلى صراط مستقيم. ("الأربعون حديثا"/ للآجري/ ص ٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ**)،

الشرح:

حديث جبريل عليه السلام هذه مدار دين الإسلام. قال الإمام ابن رجب رحمه الله: فمن تأمل ما أشرنا إليه مما دل عليه هذا الحديث العظيم، علم أن جميع العلوم والمعارف ترجع إلى هذا الحديث وتدخل تحته، وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث، وما دل عليه مجملا ومفصلا، فإن الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة خصال الإسلام، ويضيفون إلى ذلك الكلام في أحكام الأموال والأبضاع والدماء، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه، ويبقى كثير من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم، ولا يتكلمون على معنى الشهادتين، وهما أصل الإسلام كله. والذين يتكلمون في أصول الديانات، يتكلمون على الشهادتين، وعلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر. والذين يتكلمون على علم المعارف والمعاملات يتكلمون على مقام الإحسان، وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضا، كالخشية، والمحبة، والتوكل، والرضا، والصبر، ونحو ذلك، فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، ففي هذا الحديث وحده كفاية، ولله الحمد والمنة. ("جامع العلوم والحكم" / الحديث الثاني/ ص٩٠-٩١/ دار ابن رجب).

قول المؤلف رحمه الله: (**عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ. قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قال: صدقت. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ ﷺ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟». قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم»**).

الشرح:

الحديث في "صحيح مسلم" برقم (٨). وصاحب الحديث هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى القرشي العدوي أبو حفص أمير المؤمنين. ولي الخلافة عشر سنين وخمسة أشهر وقيل ستة أشهر. مناقبه كثيرة جداً. وقتل شهيداً سنة (٢٣). ودفن جنب رسول الله عليه وسلم في بيت عائشة رضي الله عنها. ("تهذيب التهذيب" / ٣ / ص ٢٢١-٢٢٢/ الرسالة).

وقوله: (**شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ**) قال الإمام سليمان الطوفي الحنبلي رحمه الله: فيه استحباب التجمل وتحسين الهيئة للعالم والمتعلم، وجبريل معلِّم من جهة لقوله: (يعلّمكم) ومتعلِّم من أخرى، من كونه جاء في صورة سائل. ("التعيين في شرح الأربعين"/ ص٤٨/ ط. المكتبة المكية).

وقوله: (**لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ**) قال الطوفي الحنبلي رحمه الله: إشارة إلى غرابة هذه الصفة لأن الرجل هيئته هيئة حاضر، لا يخفى عليه أثر الدين. فمع اشتهاره غالباً خصوصاً في المدينة، وسؤاله سؤال أعرابي وارد غير عالم بالدين. ("التعيين"/ ص٤٨).

وقوله: (**وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ**) قال الطوفي الحنبلي رحمه الله: إشارة إلى غرابة القضية أيضاً، لأن هيئته تقتضي أنه من أهل المدينة، ولو كان منها لعرفناه أو بعضنا، فقد حصل فيه أمارة معرفتنا له، مع عدم معرفتنا له. ("التعيين"/ ص٤٩).

وقوله: (**وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ**) قال الطوفي الحنبلي رحمه الله: الضمير في (كفيه) للرجل، وفي (فخذيه) يحتمل أنه للرجل أيضا، وأنه وضع كيفه على فخذيه نفسه معتمداً عليهما وقت السؤال، ويحتمل أنه للنبي ﷺ، وأن الرجل وضع كفيه على فخذي النبي ﷺ استئناساً باعتبار ما بينهما من الأنس في الأصل حين يأتيه جبريل عليه السلام لتبليغ الوحي، ...إلخ. ("التعيين"/ ص٤٩).

وقوله: (**وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ**) قال الإمام ابن الملقن رحمه الله: مناداته باسمه كما يناديه الأعراب من باب التعمية على حاله. ("المعين على تفهم الأربعين"/ الحديث الثاني/ ص١٠١/ ط. الفاروق).

وقوله: (**الإسلام أن تشهد** ...). قال الإمام ابن رجب رحمه الله: فأما الإسلام، فقد فسره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وأول ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وهو عمل اللسان، ثم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. وهي منقسمة إلى عمل بدني : كالصلاة والصوم ، وإلى عمل مالي : وهو إيتاء الزكاة ، وإلى ما هو مركب منهما : كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة –إلى قوله:– وإتمام الوضوء ، وفي هذا تنبيه على أن جميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام . ("جامع العلوم والحكم" / ص٦١-٦٢).

وقوله: (**فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ**) قال القرطبي رحمه الله: إنما تعجبوا من ذلك؛ لأن ما جاء به رسول الله ﷺ لا يعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممن عُرف بلقاء النبي ﷺ، ولا بالسماع منه، ثم هو قد سأل سؤال عارف محقق مصدق؛ فتعجبوا من ذلك تعجب المستبعد لأن يكون أحد يعرف تلك الأمور المسؤول عنها من غير جهة النبي ﷺ. ("المفهم" / ١/ ص٦٦).

وقوله: (**الإيمان أن تؤمن** ...). قال الإمام ابن رجب رحمه الله: وأما الإيمان، فقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة. ("جامع العلوم والحكم" / ص٦٤/ دار ابن رجب).

وقوله: (**أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ**) قال الإمام القرطبي رحمه الله: سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها. ("الجامع لأحكام القرآن"/ الأنعام: ٣١/ ٦/ ص ٤١٢).

وقوله: (**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**) لا أحد من المخلوقين يعلم متى تقوم الساعة. وأدلة ذلك معروفة. قال الإمام ابن رجب رحمه الله: أنَّ علم الخلق كلِّهم في وقتِ السَّاعة سواءٌ، وهذه إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى استأثر بعلمها. ("جامع العلوم" / ص٩٢/ ط. دار ابن رجب).

وقوله : (**فأخبرني عن أماراتها**). قال الإمام ابن رجب رحمه الله: يعني: عن علاماتها التي تدلُّ على اقترابها. ("جامع العلوم والحكم" / الحديث الثاني/ ص٩٢).

وقوله : (**أن تلد الأمة ربتها**). قال الإمام ابن رجب رحمه الله: والمراد بربَّتها سيِّدتُها ومالكتها، وفي حديث أبي هريرة «**ربها**»، وهذه إشارةٌ إلى فتح البلاد، وكثرة جلبِ الرَّقيق حتى تكثر السَّراري، ويكثر أولادهن، فتكون الأُم رقيقةً لسيِّدها، وأولاده منه بمنْزلته، فإنَّ ولدَ السيد بمنْزلة السيد ، فيصير ولد الأمة بمنْزلة ربها وسيدها. ("جامع العلوم"/ ص٩٢).

وفي قوله : «**يتطاولون في البنيان**». قال الإمام ابن رجب رحمه الله: وفي قوله : «**يتطاولون في البنيان**» دليلٌ على ذمِّ التباهي والتفاخر، خصوصاً بالتطاول في البنيان، ولم يكن إطالة البناء معروفاً في زمن النَّبيّ ﷺ وأصحابه، بل كان بنيانهم قصيراً بقدر الحاجة. ("جامع العلوم والحكم" / ص٩٦).

وقوله: (**فَلَبِثْنَا مَلِيًّا**) قال ابن الملقن رحمه الله: لأنه من الملوان: الليل والنهار. ("المعين" / ص٩٩/ ط. الفاروق).

وقوله: (**قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**) هذا من حسن أدب الصحابة رضي الله عنهم حيث رجعوا علم ذلك إلى الله ورسوله ﷺ.

وقوله: (**يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم**) فيه دليل على جواز السؤال لتعليم غيره. قال الطوفي الحنبلي رحمه الله: فتبين أنه كان عالما في صورة متعلم لقصد التعليم والتبيين لهم، ...إلخ. ("التعيين"/ ص٥٥).

وفيه دليل على أهمية تعلم هذه الأمور. قال الإمام الآجري رحمه الله: اعلم رحمنا الله وإياك أن النبي ﷺ قد أعلمك في هذا الحديث أن جبريل عليه السلام إنما سأل النبي ﷺ بحضرة أصحابه إنما أراد أن يعلمهم أمر دينهم ، فينبغي للمسلمين أن يعلموه. ("الأربعون حديثا"/ للآجري / ص ٦).

[معرفة نبينا محمد ﷺ]

قول المؤلف رحمه الله: (**الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ**).

الشرح:

لا بد من معرفة من أرسله الله إلينا في تبليغ هذا الدين. فليس كل من قال إنه رسول الله يصدَّق، بل لا بد من علامات كما بين الله في كتابه من أنه محمد القرشي، من ذرية إبراهيم الخليل، توافق أخلاقه ما أخبر به القرآن والسنة. قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف/ ٦]. وقال سبحانه: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾ الآية. [الأعراف/ ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح/ ٢٩].

قول المؤلف رحمه الله: (**من قريش**) قُرَيش قبيلةُ سيدنا رسول الله ﷺ، أَبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، فكلُّ من كان من ولد النضر فهو قُرَشِيٌّ دون ولدِ كنانة ومَنْ فوقَه. سميت بذلك لتَقَرُّشِها أَي تجمُّعِها إِلى مكة من حواليها بعد تفرُّقِها في البلاد حين غلب عليها قُصَيّ بن كِلاب، وبه سمي قصيٌّ مُجَمِّعاً. (راجع "لسان العرب"/ لابن منظور/ ٦/ ص ٣٣٤).

قوله: (**من العرب**) واختلف الناس في العرب لِمَ سموا عرباً، فقال بعضهم: أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة. وقيل: إن أولاد إسمعيل

نشؤوا بعربة وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلدهم. (راجع "لسان العرب"/ ٩/ ص١١٤).

قوله: (**إبراهيم الخليل**) هو إبراهيم عليه السلام، ابن آزر، ولد في أرض الكلدانيين وهي أرض بابل. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر. ("قصص الأنبياء"/ لابن كثير/ ص١٤٥/ مكتبة عباد الرحمن).

وقال رحمه الله: وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتهم، وكسرها عليهم، وأهانها، وبين بطلانها. (نفس المصدر / ص١٥٠).

وقال رحمه الله: ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران، وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضا –إلى قوله:– وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل، وامرأته، وابن أخيه لوط عليه السلام. (نفس المصدر / ص١٤٦).

ثم إبراهيم عليه السلام ذهب مع سارة إلى مصر، والقصة معروفة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. (أخرجه البخاري (٥٠٨٤) ومسلم (٢٣٧١) وهذا لفظه).

وانطلق إبراهيم عليه السلام بهاجر إلى مكة في موضع بيت الله المحرم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هاجر وإسماعيل. (أخرجه البخاري (٣٣٦٤)).

قول المؤلف رحمه الله: **(وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون نبيا رسولًا. نُبِّئَ بـ(اقْرَأ) ، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ))**.

الشرح:

عمْر النبي ﷺ كما في حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: **بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين**. (أخرجه البخاري (٣٩٠٢)) ومسلم (٢٣٥١)).

وقوله: (**نُبِّئَ بـ(اقْرَأ)**) نبئ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس آيات من أول سورة العلق. عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد -إلى قولها:- فجاءه الملك فقال: اقرأ . قال: «**ما أنا بقارئ**». قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ . فقلت: ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم﴾**». الحديث. (أخرجه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)).

وقوله: (**وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ))** بُعث النبي ﷺ رسولًا إلى الناس بأوائل سورة المدثر. عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال - وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: - في حديثه: «**بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ فحمى الوحى وتتابع**». (أخرجه البخاري (٤) ومسلم (١٦١)).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وهاجر إلى المدينة**).

الشرح:

قال الله تعالى: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾ [التين/ ١-٣].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقال بعض الأئمة: هذه مَحَالٌّ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبيًا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. **والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمدًا** ﷺ. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص ٤٣٤).

وعن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهرى قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة فقال: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**». (أخرجه الترمذي (٤٣٠٤)، وسنده صحيح، وانظر "الصحيح المسند" للإمام الوادعي رحمه الله (٢٦٣٠)).

إن كفار قريش أخرجوا رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ**﴾ [الممتحنة/ ١].

وقال سبحانه: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾ [محمد/ ١٣].

وعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ في قصة بدء الوحي: ...فقال له ورقة هذا: الناموس الذي أنزل الله على موسى ﷺ -، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «**أومخرجيّ هم؟**». قال: نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي. (أخرجه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)).

قول المؤلف رحمه الله: (**بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾** [المدثر: ١-٧]).

الشرح:

دعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام تدور حول قول: لا إله إلا الله، كما قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل/ ٣٦]، وقال تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [المؤمنون/ ٣٢].

وعن طارق المحاربي رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ مر في سوق ذي المجاز وعليه حلة حمراء، وهو يقول: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبيه وعرقوبيه ، وهو يقول : يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : غلام بني عبد المطلب ، فقلت : من هذا الذي يتبعه يرميه بالحجارة ؟ قالوا : هذا عبد العزى أبو لهب. (أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم (١٦٠)، وصححه الإمام الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح"/ (٤٤٢٦)).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: أمر الله الرسل وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالصبر كقوله لخاتم الرسل، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة، فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة: ﴿**يا أيها المدثر**﴾ بعد أن أنزلت عليه سورة اقرأ التي بها نبئ فقال: ﴿**يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر**﴾ فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة وختمها بالأمر بالصبر. ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر. وقال: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور/ ٤٨]. وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾ [المزمل/ ١٠]. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٨/ ص ١٣٦-١٣٧).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا**).

الشرح:

قال الإمام الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿**قُمْ فَأَنْذِرْ**﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قم من نومك فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله، وعبدوا غيره. ("جامع البيان" / ٢٣ / ص ٩).

وقال الإمام الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ يقول تعالى ذكره: وربك يا محمد فعظِّم بعبادته، والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد. ("جامع البيان" / ٢٣ / ص ٩).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهِّر من الذنب فكنى عن النفس بالثوب، وهذا قول إبراهيم النخعي، والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. ("مدارج السالكين"/ ٢/ ص ٢٠).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿**والرجز فاهجر**﴾ قال مجاهد وعكرمة: يعني الأوثان، دليله قوله تعالى: ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان**﴾ [الحج: ٣٠]. ("الجامع لأحكام القرآن" / ١٩/ ص ٦٦).

قال المؤلف رحمه الله: (**أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ**).

الشرح:

بعد نزول هذه الآية قام رسول الله ﷺ جهاداً في سبيل الله حق جهاده بنشر التوحيد وقمع الشرك بأنواع الحجج والبراهين النيرة كأنها الفجر الصادق يشق ظلمات الليل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله فإنه كمل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز و جل فإنه لما نزل عليه: ﴿**يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر**﴾ (المدثر : ١ - ٤) شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات الله أتم قيام ودعا إلى الله ليلا ونهارا وسرا وجهارا ولما نزل عليه : ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾ (الحجر : ٩٤) فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس. ("زاد المعاد"/ ٣/ ص ١١).

ثم تنزلت الآيات الكثيرة في الدعوة والإنذار. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟**». قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾. (أخرجه البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٨)).

ثم قال رحمه الله: (**وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ**).

الشرح:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل - عليه السلام - بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكرياء صلوات الله عليهما فرحبا ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد -ﷺ-. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بيوسف -ﷺ- إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل - عليه السلام - قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بهارون -ﷺ- فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بموسى - ﷺ- فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد -ﷺ-. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم**

-ﷺ- مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال - قال - فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى -ﷺ- فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي. فحط عنى خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عني خمساً. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى -عليه السلام- حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة. ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى -ﷺ- فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه ». (أخرجه مسلم (١٦٢)).

وانظر أيضاً ما أخرجه البخاري برقم (٣٤٩) ومسلم برقم (١٦٣) عن أنس أيضاً.

وقد أجمع المسلمون على إسراء النبي ﷺ ومعراجه حتى نقله أبو الحسن الأشعري رحمه الله فقال: وأجمعوا على ... وعلى أن الإيمان بما جاء من خبر الإسراء بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى السموات واجب. ("رسالة إلى أهل الثغر"/ ص٢٩١/ مكتبة العلوم والحكم).

وقول المؤلف رحمه الله: (**وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ**)، هذا من مناقب الصلوات الخمس. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهي أول ما أوجبه الله من العبادات. والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج. ("مجموع الفتاوى"/ ٣/ ص ٤٢٨).

وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله بعض خصائص الصلاة: ... ولأن الله فرضها في السماء ليلة المعراج. ("الصلاة وحكم تاركها"/ ص٢٢/ دار الإمام أحمد).

قال المؤلف رحمه الله: (**وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ**).

الشرح:

لما اشتد تضييق كفار مكة على رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، أذن لهم الله تعالى بالهجرة. وفي هجرة النبي ﷺ آيات بينات لقوم يؤمنون.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة. فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مرّ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصلّ فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم . فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه فى داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة فأتى ابن

الدغنة إلى أبى بكر فقال قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل. والنبي ﷺ يومئذ بمكة ، فقال النبي ﷺ للمسلمين: «**إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين**». وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : «**على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لي**». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «**نعم**». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر . قالت عائشة: فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أخرج من عندك**». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال: «**فإني قد أذن لي في الخروج**». فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ : « **نعم** ». قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين. قال رسول الله ﷺ: «**بالثمن**». قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق – قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور، فكمنّا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما، حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالى الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتا – والخريت الماهر بالهداية – قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل. (أخرجه البخاري (٣٩٠٥)).

وعن أبي بكر رضى الله عنه قال: أسرينا ليلتنا ، ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة ، لها ظل لم تأت عليه الشمس فنزلنا عنده ، وسويت للنبي ﷺ مكاناً بيدى ينام عليه ، وبسطت فيه فروة ، وقلت: نم يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك. فنام وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة . قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم . قلت: أفتحلب؟ قال: نعم . فأخذ شاة . فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقذى. قال: فرأيت البراء يضرب إحدى يديه على الأخرى ينفض ، فحلب في قعب كثبة من لبن ، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوى منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت: اشرب يا رسول الله. قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال: «**ألم يأن للرحيل**». قلت: بلى. قال: فارتحلنا بعد ما مالت الشمس، واتبعنا سراقة بن مالك، فقلت: أتينا يا رسول الله. فقال: «**لا تحزن ، إن الله معنا**». فدعا عليه النبي ﷺ، فارتطمت به فرسه إلى بطنها – أرى في جلد من الأرض، شك زهير – فقال: إني أراكما قد دعوتما على فادعوا لي، فالله لكما أن أرد عنكما الطلب. فدعا له النبي ﷺ، فنجا فجعل لا يلقى أحداً إلا قال: كفيتكم ما هنا. فلا يلقى أحداً إلا رده. قال: ووفى لنا . (أخرجه البخاري (٣٦١٥) ومسلم (٧٧٠٦)).

وفي رواية لمسلم (٧٧٠٧) من حديث أبي بكر رضي الله عنه: ... فقدمنا المدينة ليلاً فتنازعوا أيهم ينزل عليه رسول الله ﷺ فقال: « **أنزل على بنى النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك** ». فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: يا محمد يا رسول الله يا محمد يا رسول الله.

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ**).

الشرح:

الهجرة في الجملة نوعان: الهجرة المعنوية، والهجرة الحسية. فالمعنوية هي: ترك ما نهى الله عنه إلى طاعته. والهجرة الحسية تنقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد التوحيد.

الثاني: الانتقال من بلد البدعة إلى بلد السنة.

الثالث: الانتقال من بلد المعصية إلى بلد الطاعة.

الاربع: الانتقال من بلد الخوف إلى بلد الأمن.

قال الإمام البيهقي رحمه الله: ومن الشُّح على الدِّين أنّ المؤمن إذا كان من قوم لا يستطيع أن يوفيّ الدِّين حقوقه بيْن ظهرانيهم، ويخشى أن يفتنوه عن دينه، وكان إذا فارقهم يجد لنفسه مأمناً يتبوأ، ويكون فيه أحسن حالاً منه بيْن هؤلاء لم يقم بيْن ظهرانيهم، وهاجر إلى حيث يعلم أنّه خير له وأوفق، قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله**﴾[النساء: ١٠٠]، فيدخل في هذا من هاجر إلى الله ورسوله ﷺ في حياته ليلقاه ويصحبه ويجاهد معه، ومن هاجر بعده إلى حيث يستطيع إظهار دينه ونصب أعلام شريعته فيه، قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ**﴾[النساء: ٥٩].

فدخل في ذلك الرّجوع إليه حيًّا في سؤاله عمّا أشكل، والرّجوع بعد وفاته إلى سنّته، وما بلغ النّاس عن ربّه جلّ جلاله، فكذلك يدخل في الهجرة إليه الوجهان اللذان ذكرتهما. والله أعلم.

فإن أقام بدار الجهالة ذليلاً مستضعفاً وهو يقدر على الانتقال إلى حيث يخالفها فقد ترك -في قول كثير من العلماء- فرضاً واجباً ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلاّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ**

سَبِيلا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء:٩٧-١٠٠].

ويوعد تارك الهجرة من البلد الَّذي يكون مستضعفاً فيه إذا كان قادراً على مثل هذا الوعيد فثبت أنهّا فريضة لازمة أيضاً.

(انتهى من "شعب الإيمان"/ للبيهقي/ ٣/ ص١٦٧-١٦٨).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ –إلى قوله:– وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]**).

الشرح:

الهجرة مشروعة إلى يوم القيامة كما سبق بيانه. فما دام هناك صراع بين التوحيد والشرك، وبين السنة والبدعة، وبين الطاعة والمعصية، وبين جنود الرحمن وجنود الشيطان، فشرعية الهجرة باقية.

والدليل على ذلك ما ذكره المؤلف رحمه الله. فالدليل الأول نزل في قصة بدر. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ فيأتي السهم فيرمى فيصيب أحدهم، فيقتله أو يضربه فيقتله. فأنزل الله تعالى ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم**﴾. (أخرجه البخاري (٧٠٨٥)).

والدليل الثاني نداء الرحمن للهجرة حماية للتوحيد. قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من عباده: يا عبادي الذين وحَّدوني، وآمنوا بي، وبرسولي محمد ﷺ ﴿**إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ**﴾ –إلى قوله:– وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: إن أرضي واسعة، فاهربوا ممن منعكم من العمل بطاعتي؛ لدلالة قوله: ﴿**فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ على ذلك، وأن ذلك هو أظهر معنييه، وذلك أن الأرض إذا وصفها بِسعَة، فالغالب من وصفه إياها بذلك لا تضيق جميعها على من ضاق عليه منها موضع، لا أنه وصفها بكثرة الخير والخصب. ("جامع البيان" / ٢٠/ ص ٥٥-٥٦).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا، على دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المُنزلين، أصحمة النجاشي ملك الحبشة، رحمه الله، آواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم شُيُوما ببلاده. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة. ("تفسير القرآن العظيم" / ٦/ ص ٢٩٠).

قول المؤلف رحمه الله: (**قَالَ الْبُغَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ -: سبب نزول هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**).

الشرح:

البغوي هو الإمام محيي السنة أبي محمد حسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي صاحب كتاب "معالم التنزيل في التفسير"، المتوفى سنة ٥١٦ هـ. ("كشف الظنون"/ ٢/ ص ١٧٢٦).

قال الإمام البغوي رحمه الله في تفسير آية "العنكبوت": قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة، إن أرضي -يعني المدينة-واسعة آمنة -إلى قوله:- وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة، وقالوا: نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج. ("معالم التنزيل"/ ٦/ ص ٢٥١).

قلت -وفقني الله-: ولم أجد دليلاً ثابتاً على سبب نزول هذه الآية.

ثم نقل المؤلف رحمه الله دليل وجوب الهجرة من السنة. والحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله بسنده إلى مالك بن يخامر، عن ابن السعدي: أن النبي ﷺ قال: «**لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل**». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «**إن الهجرة خصلتان، إحداهما: أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله. ولا تنقطع الهجرة ما**

تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب. فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل». ("المسند" رقم (١٦٧١))[٤].

---

[٤] رجال السند ثقات إلا إسماعيل بن عياش، روايته عن الشاميين مستقيمة حسنة. وشيخه ضمضم بن زرعة حمصي حضرمي صدوق. وابن السعدي هو أبو محمد عبد الله رضي الله عنه ويقال له السعدي لأنه كان مسترضعاً في بني سعد. وله صحبة.

فحديث عبد الله ابن الساعدي رضي الله عنه يقويه حديث معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين.

فالحديث بهذا السند حسن لأن مداره على إسماعيل بن عياش.

وله متابع:

أخرجه أحمد في مسنده (١٧٩٥٢) وأبو داود في سننه (٢٤٧٩) والنسائي في الكبرى (٨٧١١) عن حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي: عن أبي هند البجلي: عن معاوية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «**لاتنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولاتنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**».

عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي هو الحمصي القاضي. قال الآجري عن أبي داود: شيوخ حريز ثقات. وذكره ابن حبان في الثقات، وقال العجلي: شامي تابعي ثقة. وقال ابن القطان: مجهول الحال. ("تهذيب التهذيب" / ٦/ ص ٢٢٢).

توثيق أبي داود لشيوخ حريز بن عثمان ضمني لا يكفي في توثيق المعين منهم، كما قاله شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله. ولكن مع توثيق العجلي له وذكر ابن حبان في الثقات –وهما متساهلان– لا بأس بعد ذلك أن نوثقه إن شاء الله. فلذلك قال فيه الذهبي رحمه الله: ثقة. ("الكاشف" / ١/ ص ٦٣٩).

وقال فيه ابن حجر رحمه الله: ثقة. ("تقريب التهذيب" / ٢/ ص ٣٤٨).

وأما أبو هند البجلي هو شامي، قال ابن القطان: مجهول. ("تهذيب التهذيب" / ١٢/ ص ٢٩٣).

قال فيه ابن حجر رحمه الله: مجهول. ("لسان الميزان" / ٧/ ص ٤٨٨).

فهذا السند ضعيف.

وله شاهد:

ولا منافاة بين هذا الحديث وبين حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**». (أخرجه البيخاري (٢١٨٣) ومسلم (١٣٥٣)).

قال الإمام النووي رحمه الله: قال العلماء: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، وفي تأويل هذا الحديث قولان: أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام، وإنما تكون الهجرة من دار الحرب. وهذا يتضمن معجزة لرسول الله ﷺ بأنها تبقى دار الإسلام لا يتصور منها الهجرة. والثاني: معناه لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضلها قبل الفتح. ("المنهاج"/ للنووي / ١٧/ ص٤٢٤).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: إن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه، وإلا وجبت. ومن ثم قال الماوردي: إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام. ("فتح الباري"/ لابن حجر / ٧/ ص٢٢٩).

أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٨٦٦) من طريق بسر بن عبيد الله عن عبد الله بن محيريز عن عبد الله بن وقدان القرشي – وكان مسترضعا في بني سعد بن بكر وكان يقال له : عبد الله بن السعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : «**لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار**».

بسر بن عبيد الله هو الحضرمي الشامي، ثقة. ("تهذيب التهذيب" / ١/ ص ٣٨٣).

وعبد الله بن محيريز هو عبد الله بن محيريز بن جنادة المكي، ثقة. ("تهذيب التهذيب" / ٦/ ص ٢٠).

وعبد الله بن وقدان القرشي السعدي صحابي.

فالسند صحيح.

وهذا الحديث الأخير أخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٢٢٣٧٨) من طريق عطاء الخرساني حدثني بن محيريز عن عبد الله بن السعدي به.

وأخرجه أيضاً الإمام النسائي في الكبرى (٨٧٠٩) من طريق بشر بن عبيد الله عن أبي إدريس الخولاني عن حسان بن الضمري عن عبد الله بن السعدي به.

فخلاصة حديث الباب: صحيح بشواهده.

ثم قال المؤلف رحمه الله: (**فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ**)،

الشرح:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله: ... وبعد الهجرة فلما ثاب الناس إلى الإسلام وحسنت فيه رغبتهم ، زادهم الله في إيمانهم أن صرف الصلاة إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس –إلى قوله:- فلبثوا بذلك برهة من دهرهم ، فلما أن داروا إلى الصلاة مسارعة ، وانشرحت لها صدورهم ، أنزل الله فرض الزكاة في أيمانهم إلى ما قبلها، فقال: ﴿**أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ وقال: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ –إلى قوله:- ثم كذلك كانت شرائع الإسلام كلها. ("الإيمان" / للقاسم بن سلام / ص٢١-٢٤).

وأما دليل الأذان للصلاة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلوات وليس ينادي بها أحد، فتكلموا يوما في ذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: قرنا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة ؟ قال رسول الله ﷺ: «**يا بلال قم فناد بالصلاة**». (أخرجه البخاري (٦٠٤) ومسلم (٣٧٧)).

وعن أبي عمير بن أنس، عن عمومة له من الأنصار قال: اهتم النبي ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها؟ فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً. فلم يعجبه ذلك. قال: فذكر له القنع –يعني: الشبور- وقال زياد: شبور اليهود. فلم يعجبه ذلك. وقال: «**هو من أمر اليهود**». قال: فذكر له الناقوس فقال: «**هو من أمر النصارى**». فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربه وهو مهتم لِهمّ رسول الله ﷺ، فأرى الأذان في منامه. قال: فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال له: يا رسول الله إنى لبين نائم ويقظان إذ أتاني آت فأرانى الأذان. قال: وكان عمر بن الخطاب - رضى الله

عنه – قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يوماً. قال: ثم أخبر النبي ﷺ فقال له: «**ما منعك أن تخبرني**». فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستحييت، فقال رسول الله ﷺ: «**يا بلال، قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد، فافعله**». قال: فأذن بلال. (أخرجه أبو داود (٤٩٨) وحسنه الإمام الوادعي رحمه الله في "الجامع الصحيح" (٨٨٤)).

وأما شرعية القتال: قال ابن حجر رحمه الله: وقال الزهري : أول آية نزلت في القتال كما أخبرني عروة عن عائشة ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**﴾ أخرجه النسائي وإسناده صحيح. ("فتح الباري"/ ١١/ ص ٢٨٣).

ونزلت شرعية القتال في السنة الأولى من الهجرة. قال ابن حجر رحمه الله: في "مغازي ابن إسحاق" ما صورته : غزوة ودان بتشديد المهملة ، قال : وهي أول غزوات النبي ﷺ خرج من المدينة في صفر على رأس اثني عشر شهرا من مقدمة المدينة يريد قريشا. ("فتح الباري"/ ١١/ ص ٢٨٣).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وهو من أصول هذا الدين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: **فإن أصل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. ورأس المعروف هو التوحيد ورأس المنكر هو الشرك . اهـ. ("مجموع الفتاوى" / ٢٧ / ص ٤٤٢).

بل نالت هذه الأمة المحمدية الأفضلية بهذه الخصلة. قال تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ [آل عمران/ ١١٠].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله –إلى قوله:- ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم، لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي. ("مجموع الفتاوى"/ ١٠/ ص٣٠١).

قول المؤلف رحمه الله: (**وأَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبعدها تُوُفِّيَ - صَلواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ . وَدِينُهُ بَاقٍ. وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا عنْهُ**).

الشرح:

توفي رسول الله ﷺ بالمدينة، ودينه باقٍ. هذا الدين الإسلامي دين الله تعالى، وهو الذي يتكفل حفظه وإن توفي رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر/ ٩].

فالله يحفظ هذا الدين ومصدر تشريعه، وحملته، كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**. قال: **فينزل عيسى ابن مريم** ﷺ **فيقول أميرهم: تعال صل لنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**». (أخرجه مسلم (١٥٦)).

ودين الإسلام مبني على جلب المصالح ودفع المضار. فجميع ما يحتاج إليه المسلمون قد دلهم عليه، وكل ما يضرهم قد حذرهم منه. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم**». (أخرجه مسلم (١٨٤٤)).

قال الإمام أبو شامة رحمه الله: والرسول قد بلغ البلاغ المبين ولم يترك طريقا يوصل إلى الجنة ويباعد من النار إلا بينه للأمة، كما ثبت في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال رسول الله: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم**». رواه مسلم في صحيحه. ومعلوم أن نبينا ﷺ هو أفضل الأنبياء، وخاتمهم، وأكملهم بلاغا ونصحا. ("الباعث على إنكار البدع والحوادث"/ ص ١٠٨).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ. وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَ عنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ**).

الشرح:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات وكان التوحيد بقول لا إله إلا الله رأس الأمر. ("مجموع الفتاوى"/ ١/ ص ٢٣).

وشريعة الله إما أمر، فهو مما يحبه الله ويرضاه، وإما نهي فهو مما يكرهه ويأباه، وإما خبر فهو صادق، وإما سنة وطريقة مسلوكة متّبعة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وما شرعه الله فهو إن كان أمرًا فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيرًا فهو حق، ...إلخ. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٥/ ص٤٩٢/ دار الحديث).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد، كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله. ("مجموع الفتاوى"/ ٧/ ص٦٤٣).

ومما يدل على أن جميع المنهيات يكرهه الله قوله تعالى بعد أن ذكر عددا من المنهيات: ﴿**كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾ [الإسراء/ ٣٨].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم ﴿**كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾ فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو يكرهه. ("مدارج السالكين"/ ٣/ ص ٤٦٨).

قوله المؤلف رحمه الله: (**بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ الله طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]**)،

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله أن نبي الله محمد ﷺ بعث إلى جميع الناس. والدليل قول الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً**﴾ [**الأعراف: ١٥٨**].

قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿**قُلْ**﴾، يا محمد للناس كلهم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً**﴾، لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرُّسل، مرسلا إلى بعض الناس دون بعض. فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم. ("جامع البيان"/ ١٣/ ص١٧٠).

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [سبأ/ ٢٨].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة**». (أخرجه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١)).

والإيمان بمحمد النبي ﷺ واجب على الكل. فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**». (أخرجه مسلم (١٥٣)).

قال الإمام النووي رحمه الله: وقوله ﷺ : «**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة**» أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته. وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى. والله أعلم . ("شرح النووي على مسلم" / ٢/ ص ٣٦٥/ دار المعرفة).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمدًا ﷺ إلى جميع الإنس والجن، فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه. فعليه أن يصدّقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر. **ومن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به فهو كافر**، سواء كان إنسيًّا أو جنّيًّا. ومحمد ﷺ مبعوث إلى الثقلين **باتفاق المسلمين**. ("مجموع الفتاوى"/ ١١/ ص ٣٠٣).

وحاجة الناس إلى دعوة محمد ﷺ أعظم من حاجتهم إلى جميع المأكولات والمشروبات وغير ذلك. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقال تعالى : ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ [المائدة : ١٥، ١٦] . فبمحمد ﷺ تبين الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، والنجاة من الوبال، والغيّ من الرشاد، والزيغ من السداد، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقون من الفجار، وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من سبيل المغضوب عليهم والضالين. فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت فى الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب . فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته فى معرفة ما جاء به وطاعته؛ إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة فى دار النعيم . والطريق إلى ذلك الرواية والنقل، إذ لا يكفى من ذلك مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه، فكذلك نور العقل لا يهتدى إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة، فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجباً على جميع الأنام . ("مجموع الفتاوى" / ١/ ص٥-٦).

[كمال هذا الدين]

قول المؤلف رحمه الله: (**وَأَكمَلَ اللهُ له الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾** [المائدة: ٣]).

الشرح:

بعث الله محمدا ﷺ لإكمال دينه، والدليل قول الله تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾** [المائدة: ٣].

هذا دليل على كمال الإسلام فلا يحتاج إلى زيادة ولا نقص.

قال الإمام أبو شامة رحمه الله: والله سبحانه قد أكمل لعباده الدين، وأتم عليهم النعمة ببعث رسول الله، وما أوحى الله إليه من الشرع الكامل، ولم يقبضه إليه إلا بعد الإكمال والتبيين. –ثم ذكر الآية–. ("الباعث على إنكار البدع والحوادث"/ ص ١١٦).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فما شيء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه إلا بيّن ذلك. ثم ذكر هذه الآية. ("مجموع الفتاوى" / ١٩/ ص ١٧٣).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فقد بيّن الله سبحانه على لسان رسوله بكلامه، وكلام رسوله جميع ما أمر به، وجميع ما نهى عنه، وجميع ما أحلّه، وجميع ما حرّمه، وجميع ما عفا عنه، وبهذا يكون دينه كاملاً كما قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾**، ولكن قد يقصر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص، وعن وجه الدلالة، وموقعها وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله. ("إعلام الموقعين"/ ١/ ص٣٣٢).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]**).

الشرح:

قوله: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ دليل على موت رسول الله ﷺ. عن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح – قال أحد الرواة: يعني بالعالية –، فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ. قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم . فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله قال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا، والذى نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا. ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك . فلما تكلم أبو بكر جلس عمر . فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . وقال: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾ وقال: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين**﴾ قال: فنشج الناس يبكون. (أخرجه البخاري (٣٦٦٧)).

وفي رواية من قصة أبي بكر رضي الله عنه: ... فتيمم النبيَّ ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه، فقبله، ثم بكى فقال: بأبي أنت يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي كتبت عليك فقد متّها. (أخرجه البخاري (١٢٤١)).

وفي رواية من قصة عمر رضي الله عنه: أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها أن النبي ﷺ قد مات. (أخرجه البخاري (٤٤٥٤)).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: شخص بصر النبي ﷺ، ثم قال: «**في الرفيق الأعلى**» ثلاثا وقصّ الحديث، قالت: فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها. لقد خوّف عمرُ الناسَ وإن فيهم لنفاقا، فردّهم الله بذلك. ثم لقد بصّر أبو بكر الناس الهدى، وعرّفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به

يتلون ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ إلى ﴿**الشاكرين**﴾. (أخرجه البخاري (٣٦٦٩-٣٦٧٠)).

وعن أنس رضي الله عنه قال: فشهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه، وشهدته يوم مات فما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه ﷺ. (أخرجه الإمام أحمد رحمه الله (١٤٠٩٥) **بسند صحيح**).

فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾ قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية -وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة- فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. ("تفسير القرآن العظيم" / ٧/ ص٩٦).

وعن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ قال الزبير: أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «**نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه**» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد. (أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (١/ ص١٦٧) **بسند حسن**).

[البعث بعد الموت، وما يتعلق به بعد ذلك]

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾** [طه: ٥٥]. **وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾** [نوح: ١٧، ١٨]. **وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾** [النجم: ٣١]).

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله أن جميع الناس بعد موتهم سيبعثون. وهذا محل الإجماع.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها، وقاموا من قبورهم لربّ العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين، واليهود، والنصارى. وهذا كله متفق عليه عند علماء الحديث والسنة اهـ. ("مجموع الفتاوى" / ٤ / ٢٨٤).

وتفسير الدليل الأول: قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجساما ناطقة **﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾** يقول: وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم تراباً، كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرا سويا **﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾** يقول: ومن الأرض نخرجكم كما كنتم قبل مماتكم أحياء، فننشئكم منها، كما أنشأناكم أول مرة. وقوله: **﴿تَارَةً أُخْرَى﴾** يقول: مرّة أخرى. ("جامع البيان" / ١٨/ ص ٣٢١).

أما تفسير الدليل الثاني: قال الإمام البغوي رحمه الله: **﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾** أراد مبدأ خلق آدم خلقه من الأرض والناس ولده. ("معالم التنزيل"/ ٨/ ص٢٣١).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: **﴿ثم يعيدكم فيها﴾** أي عند موتكم بالدفن. **﴿ويخرجكم إخراجا﴾** بالنشور للبعث يوم القيامة. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ١٨/ ص ٣٠٥).

وبعض المتفلسفة ينكرون البعث بعد الموت. وقد رد عليهم الله تعالى بالأدلة منها: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

قال الإمام البغوي رحمه الله: ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: يابسة لا نبات فيها، ﴿فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر، ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت، وقيل: فيه تقديم وتأخير معناه: ربت واهتزت وربا نباتها، فحذف المضاف، والاهتزاز في النبات أظهر، يقال: اهتز النبات أي : طال وإنما أُنِّث لذكر الأرض. -إلى قوله:- ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: صنف حسن يبهج به من رآه، أي: يسر، فهذا دليل آخر على البعث. ("معالم التنزيل"/ ٥/ ص٣٦٧).

ثم أثبت المؤلف رحمه الله حساب العباد بعد بعثتهم. وهذا مجمع عليه أيضاً.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة، والنار، والبعث، والحساب، وفتنة القبر، والحوض، وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر، فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة اهـ. ("مجموع الفتاوى" / ١١/ ص٤٨٦/ مكتبة ابن تيمية).

هذا الجزاء يكون بعد الحساب إجماعًا. قال الحافظ ابن القطان الفاسي رحمه الله: وأجمعوا على أن الخلق يؤتون بصحف أعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه حوسب حسابا يسيرا، ومن أوتي كتابه بشماله فأولئك يصلون سعيراً اهـ. ("الإقناع"/ ذكر الحساب/ ج١/ رقم (١٩/ ١)/ دار الكتب العلمية).

وقال الإمام الطبري رحمه الله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ يقول: ليجزي الذين عصوه من خلقه، فأساءوا بمعصيتهم إياه، فيثيبهم بها النار ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ يقول: وليجزي الذين أطاعوه فأحسنوا بطاعتهم إياه في الدنيا بالحسنى وهي الجنة، فيثيبهم بها. ("جامع البيان" / ٢٢ / ص ٥٣١).

ثم قال المؤلف رحمه الله: (**وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾** [التغابن: ٧]).

الشرح:

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: الزعم: هو القول بالظنّ، ويطلق على الكذب. ("فتح القدير"/ ٧/ ص٢٣٤).

وقد استدل المؤلف رحمه الله بهذه الآية على كفر من أنكر البعث.

والبعث بعد الموت أدلته ظاهرة جداً، منها سبق ذكره. وهو مجمع عليه كما سبق. وهو مما علم من الدين بالضرورة. فمن كذب به فهو كافر. وهكذا شأن الكفار كما ذكر المؤلف رحمه الله الدليل على ذلك. وقال الله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾** [سبأ/ ٣]، وقال سبحانه: **﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ –إلى قوله:– إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾** [المؤمنون/ ٣٣-٣٧]. وقال الله تعالى: **﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾** [عبس: ١٧ – ٢٢].

قال الإمام ابن الكثير رحمه الله: يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: **﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾** –إلى قوله:– وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٨/ ص٣٢٢).

وقول الله تعالى: ﴿ **وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ [التغابن: ٧] يدل على أن ابتداء الخلق وإعادته وكل شيء يسير على الله. قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ [العنكبوت/ ١٩].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبرًا عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦/ ص ٢٧٠).

والمكذِّب بالبعث كافر. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**». (أخرجه مسلم (٢١٤)).

قال الإمام النووي رحمه الله: وهو معنى قوله ﷺ: «**لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**» أي لم يكن مصدقاً بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل. ("المنهاج"/ ١٩/ ص١٢٤).

[دعوة الرسل عليهم السلام وحقيقتها]

قول المؤلف رحمه الله: (**وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء/ ١٦٥]. **وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ - ﷺ - وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نبي بعده. والدليل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ الآية. وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾** [النساء: ١٦٥]).

الشرح:

قول الله تعالى: **﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** يدل على أن من وظيفة الرسل تبشير أهل الطاعة وإنذار أهل المعصية.

قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول: أرسلتهم رسلاً إلى خلقي وعبادي، مبشرين بثوابي من أطاعني واتبع أمري وصدَّق رسلي، ومنذرين عقابي من عصاني وخالف أمري وكذب رسلي **﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾**، يقول: أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين، لئلا يحتجّ من كفر بي وعبد الأنداد من دوني، أو ضل عن سبيلي بأن يقول إن أردتُ عقابه: **﴿لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾**. فقطع حجة كلّ مبطل ألحدَ في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه. ("جامع البيان"/ ٩ / ٤٠٨).

قال الله تعالى: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾** [البقرة/ ١١٩]، وقال تعالى: **﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾** [مريم/ ٩٧]، وقال جل ذكره: **﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾** [الكهف/ ٢-٤]، وغيرها من الآيات.

وقول المؤلف رحمه الله: (**وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ**). نبي الله نوح عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض، بدليل ما ذكره المؤلف رحمه الله الآتي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال في قصة الشفاعة الكبرى: «... **فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض**». (أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤)).

وقول المؤلف رحمه الله: (**وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ - ﷺ - وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نبي بعده**) آخر الأنبياء على الإطلاق هو محمد بن عبد الله القرشي عليه الصلاة والسلام. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي**». (أخرجه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢)).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**». (أخرجه مسلم (٣٤٠٤)).

فمن زعم بعد وفاة النبي ﷺ أنه نبي أو رسول الله فقد كذب لخلافه للواقع، وكفر لرده للقرآن والسنة. عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**». (أخرجه البخاري (٣٦٠٩) ومسلم (١٥٧)).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦/ ٤٢٨).

فكل من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ فإنه كذاب، كما مر بنا.

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد، صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو

كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم**﴾ الآية [الشعراء:٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم في غاية البر والصدق، والرشد، والاستقامة، والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٦ / ص٤٣٠-٤٣١).

ومن لم يؤمن بأن محمد ﷺ آخر الأنبياء فقد كفر. بل جعل بعض العلماء أن هذا من الضروريات التي لا يسع المسلم جهلها.

قال العلامة ابن نجيم رحمه الله: إذا لم يعرف أن محمداً آخر الأنبياء فليس بمسلم لأنه من الضروريات. ("الأشباه والنظائر"/ ابن نجيم الحنفي/ ص ٢١٥).

وأما نوح عليه السلام: قد مر بنا ذكر كلام رسول الله ﷺ في أن نوحاً عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض. وقد استدل المؤلف رحمه الله على ذلك بقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ**﴾ [النساء: ١٦٥]. فيها إشارة إلى أن نوحاً عليه السلام أول الرسل –أي إلى أهل الأرض–، وجميع الأنبياء –ما عدا آدم وإدريس– إنما جاءوا من بعدهم.

وأما تعريف الوحي فهو كما قال الراغب رحمه الله: أصل الوحي: الإشارة السريعة. ("مفردات غريب القرآن" / ص ٥١٥).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: والوحي إعلام في خفاء. ("الجامع"/ ٦/ ص ١٥).

وأنواع الوحي كثيرة. راجع "زاد المعاد" (لابن القيم/ ١/ ص٧٠).

وليس نبي الله محمد ﷺ بدعاً من الرسل، وليس بأول من أوحي إليه، وقد خلت من صبله الرسل. قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح**﴾، إنا أرسلنا إليك، يا محمد، بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائر الأنبياء الذين سَمَّيتهم لك من بعده، والذين لم أسمِّهم لك. ("جامع البيان"/ الطبري/ ٩ / ص ٣٩٩).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]**).

الشرح:

جميع الأنبياء عليهم السلام يدعون إلى تحقيق العبادة لله تعالى مع نبذ الشرك. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينا غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب كما قال تعالى: ﴿**واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**﴾، وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾، وقال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة**﴾. وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾. ("مجموع الفتاوى"/ ١ / ص ١٥٤).

وفي حديث عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه أنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: ما أنت؟ قال: «**أنا نبي**». فقلت: وما نبي؟ قال: «**أرسلني الله**». فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «**أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**». (أخرجه مسلم (١٩٦٧)).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم، فقال نوح لقومه ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم قال الله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ وقال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدوا**﴾. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص ١٠١).

[حقيقة الطاغوت وأنواعه]

قول المؤلف رحمه الله: (**وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِالله. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ**).

الشرح:

إن الله خلق الإنس والجن من أجل الإيمان بالله والكفر بما يعبد من دونه. والدليل قد تكرر ذكره. وأهل التوحيد هم أهل الفلاح والبشرى لأنهم المستمسكون بالله. قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى الله لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ**﴾ [الزمر/ ١٧]. قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

ذكر المؤلف رحمه الله الإمامَ ابن القيم، وهو محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي العلامة الكبير المجتهد المطلق المصنف المشهور رحمه الله، تتلمذ عند ابن تيمية وغيره وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر في الآفاق وتبحر في معرفة مذاهب السلف. **وكان متقيداً بالأدلة الصحيحة معجبا بالعمل بها غير معول على الرأي صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحدا**. وكان ملازما للاشتغال ليلا ونهارا كثير الصلاة والتلاوة حسن الخلق كثير التودد لا يحسد ولا يحقد. وحكي عنه قبل موته بمدة أنه رأى شيخه ابن تيمية في المنام وأنه سأله عن منزلته أيّ منزلة الشيخ فقال: إنه أنزل فوق فلان وسمى بعض الأكابر، وقال له: وأنت كدت تلحق به ولكن أنت في طبقة ابن خزيمة. وتوفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. ("البدر الطالع" / ١/ ص٥٩-٦١/ دار الكتب العلمية).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في تعريف الطاغوت: والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم. إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء

لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معاً. ("إعلام الموقعين"/ ١/ ص ٥٠).

وهذا التعريف هو من أحسن التعريفات للطاغوت. فمَن عامله الإنسان بالغلو في التعظيم فأعطاه فوق ما يستحقه صار طاغوتاً. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والمطاع في معصية الله، والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق، سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله، أو مطاعاً أمره المخالف لأمر الله، هو طاغوت. ولهذا سمي من تُحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوتاً، وسمى الله فرعون وعاداً طغاة، وقال في صيحة ثمود: ﴿**فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية**﴾. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٨/ ص ٢٠١).

وهذا الغلو في التعظيم هو أعظم أسباب الشركيات في العالم، وأرسل الرسل من أجل إبطال هذا المنكر الأعظم، كما سبق.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه. وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم الذي أبطله الله سبحانه وبعث رسله، وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله. ("إغاثة اللهفان" / ٢/ ص ٢٢٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرة وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ**).

الشرح:

سمي إبليس إبليس لأنه يئس من رحمة الله بسبب عظم كفره. قال الإمام القرطبي رحمه الله: وإبليس وزنه إفعيل، مشتق من الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله تعالى. ("الجامع"/ ١ / ص ٢٩٥).

لقد استكبر إبليس على أمر الله فلعنه الله، وطرده من رحمته الواسعة، ويئس منها، ولم يتب من ذنبه، بل أعلن العداوة لآدم وذرياته والسعي في إغوائهم، فما من ذنب لابن آدم إلا فهو سببه، فاستحق العذاب فوق العذاب. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ولهذا كان عدوّ الله إبليس أشد أهل النار عذاباً، وهو أول من يكسى حلة من النار، لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصي الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته. ("طريق الهجرتين"/ ص ٥٠٥/ دار ابن رجب).

فإبليس لعنه الله رأس الطواغيت لأنه يدعو الناس إلى عبادة نفسه وإلى ارتكاب جميع المعاصي. قال الله تعالى: ﴿**إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**﴾ [النساء/ ١١٧-١١٩].

قال الإمام البغوي رحمه الله: ﴿**وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا**﴾ أي: وما يعبدون إلا شيطانًا مريدًا لأنهم إذا عبدُوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان، والمريد: المارد، وهو المتمرد العاتي الخارج عن الطاعة، وأراد: إبليس. ﴿**لَعَنَهُ اللهُ**﴾ أي: أبعده الله من رحمته. ("معالم التنزيل"/ ٢/ ص٢٨٨).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ**).

الشرح:

قوله رحمه الله: (**وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ**) الرضا بمجاوزة الحد طغيان، وفاعله طاغوت. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والطغيان مجاوزة الحد، وهو الظلم والبغي. فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك طاغوت. ("مجموع الفتاوى"/ ٢٨ / ص ٢٠١).

وبهذا البيان خرج نبي الله عيسى عليه السلام من جملة الطواغيت لأنه لا يرضى أن يُعبد من دون الله. قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ [المائدة/ ١١٦، ١١٧].

وأما من رضي بالكفر فإنه كافر. قال الإمام القرطبي رحمه الله: **والرضا بالكفر كفر**. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ٣ / ص ٣٦٢).

وقوله رحمه الله: (**وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ**) لا يعلم غيب السموات والأرض إلا الله، قال تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾ [الأنعام/ ٥٩]، وقال: ﴿**فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ**﴾ [يونس/ ٢٠]، وقال: ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾ [النمل/ ٦٥].

والرسول ﷺ في الأصل لا يعلم الغيب، إلا حسب ما أطلعه الله عليه. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ**﴾ [الأنعام/ ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف/ ١٨٨]. وقال: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾ [الجن/ ٢٦، ٢٧].

والجن أيضاً لا يعلمون الغيب، قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾ [سبأ/ ١٤].

قال الإمام ابن العربي رحمه الله: فأما من ادعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر ، أو أخبر عن الكوائن الجملية أو المفصلة فيما يكون قبل أن يكون، فلا ريبة في كفره أيضاً. ("أحكام القرآن"/ ٣/ ص ٤٣١).

والغيب ينقسم إلى قسمين: الغيب المطلق والغيب المقيد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو سبحانه قال: ﴿**قل لا يعلم من**﴾، ولم يقل : (ما)، فإنه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه بـ: (من) لتكون أبلغ، فإنهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله. وهذا هو **الغيب المطلق** عن جميع المخلوقين الذي قال فيه : ﴿**فلا يظهر على غيبه أحداً**﴾ [الجن: ٢٦]. **والغيب المقيد** ما علمه بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عمن غاب عنه، ليس هو غيباً عمن شهده. والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا، فيكون غيباً مقيداً، أي: غيباً عمن غاب عنه من المخلوقين، لا عمن شهده، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة. ("مجموع الفتاوى" / ١٦/ ص ١١٠).

وقول المؤلف رحمه الله: (**وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ**) من دعا الناس إلى عبادة نفسه فقد كفر وطغى. قال الله تعالى في صاحب إبراهيم: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة/ ٢٥٨].

وكذلك فرعون مدعي الربوبية والألوهية. قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكان يجحد الخالق جل جلاله ويقول : ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ ويقول لموسى: ﴿**لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ ويقول: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى أو يكون لموسى إله فوق السموات ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ويكون هو المعبود المطاع. ("مجموع الفتاوى" / ١٣/ ص ١٨٥).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]**).

الشرح:

تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فرض حتم على كل مسلم، وذلك من توحيد الألوهية. فنحن نعبد الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتحليل ما حرمه، وتحريم ما حرمه. فمن حكم بغير ما أنزل الله عمداً وعلماً مع اعتقاد جوازه، أو أن غير حكم الله يساويه، أو أحسن منه، فقد طغى وكفر.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرّم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا باتفاق الفقهاء. وفي مثل هذا نزل قوله على أحد القولين: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة/ ٤٤] أي: هو المستحل للحكم بغير ما أنزل الله. ("مجموع الفتاوى"/ ٣/ ص ٢٦٧-٢٦٨).

وقد كثرت أقوال العلماء في الآية الآنفة الذكر، ونوعية الكفر المذكور فيها. والراجح ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله: والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، **فهذا كفر أصغر**. وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، **فهذا كفر أكبر**. وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ، له حكم المخطئين. ("مدارج السالكين"/ ١/ ص٢٧٥/ دار الحديث).

استدل المؤلف رحمه الله بهذه الآية: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله**﴾ الآية على أن كل ما يُعبد من دون الله فإنه طاغوت. وهذه الآية أيضاً دليل على نجاة وفلاح من استمسك بتوحيد الله.

قال الإمام الطبري رحمه الله: ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه، وإسلامه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة، كالمتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها. ("جامع البيان"/ ٥/ ص ٤٢٢).

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ أي: فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم. -إلى قوله:- وقوله: ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا**﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد. ("تفسير القرآن العظيم"/ ١/ ص ٦٨٣).

قول المؤلف رحمه الله: (**وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا اله إِلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله عز وجل»**. وَاللهُ أَعْلَمُ. **تمت ثلاثة الأصول، والحمد لله رب العالمين**).

الشرح:

قول المؤلف رحمه الله: (**وهذا هو معنى لا اله إِلا اللهُ**)، أي: أن الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هو ما تضمنه كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، وهي أوثق عرى الإسلام، وهي قطر رحى دعوة الأنبياء عليهم السلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ قال: لا إله إلا الله . ("تفسير ابن أبي حاتم" (٢٦٢٤)، **بسند صحيح**).

قوله رحمه الله: (**وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله عز وجل»**). **فالحديث صحيح لغيره**، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه[٥].

ومعنى الحديث: التوحيد هو رأس الأمر، لأن الإسلام هو التوحيد. قال السندي رحمه الله: «**رأس الأمر الإسلام**» أي الإتيان بالشهادتين. ("حاشية السندي على ابن ماجه"/ ٧/ ص ٣٤٣).

---

[٥] أخرجه الحاكم (٢٤٠٨) والطبراني في "الكبير" (١٦٧١٠) والمروزي في "تعظيم قدر الصلاة" رقم (١٩٧) **وسندهم حسن** من أجل ميمون بن أبي شبيب وهو صدوق.

وأخرجه الطبراني في "الكبير" (١٦٦٢٦) وفي سنده محمد بن محمد الجذوعي الْقَاضِي **مجهول الحال**. وفي سنده أيضا شهر بن حوشب **وهو لين**.

وأخرجه الإمام أحمد (٢٢١٢١) وأبو داود الطيالسي (٥٦١) من حديث معاذ رضي الله عنه، في سنده عروة بن النزال، **مجهول الحال ولم يسمع من معاذ**.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٠٣) عن معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل به.

ومن طريق عبد الرزاق الإمامُ أحمد (٢٢٠٦٩).

وأخرجه النسائي في "الكبرى" (١١٣٣٠) من طريق معمر به.

ورواية معمر عن عاصم بن أبي النجود مضطرب كثيراً كما قاله يحيى بن معين.

وفي الجملة **فالحديث صحيح لغيره**.

قال الإمام ابن رجب رحمه الله: «**وعموده الصلاة**» فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاط ولا يثبت إلا به، ولو سقط العمود، لسقط الفسطاط، ولم يثبت بدونه. ("جامع العلوم والحكم"/ الحديث الثالث).

وقال ابن رجب رحمه الله: «**وذروةُ سنامه**»: أعلى شيء فيه، ولكنَّه ليس من دعائمه وأركانه التي بُني عليها، وذلك لوجهين: أحدهما: أن الجهاد فرض كفاية عند جمهور العلماء، ليس بفرض عين، بخلاف هذه الأركان. والثاني: أن الجهاد لا يستمر فعله إلى آخر الدهر، بل إذا نزل عيسى - عليه السلام - ، ولم يبق حينئذ ملة إلا ملة الإسلام، فحينئذ تضع الحرب أوزارها، ويستغنى عن الجهاد، بخلاف هذه الأركان، فإنها واجبة على المؤمنين إلى أن يأتي أمر الله وهم على ذلك، والله أعلم. ("جامع العلوم والحكم"/ الحديث الثالث/ ص١٠٤/ دار ابن رجب).

ثم قال المؤلف رحمه الله: (**والله أعلم**). فمهما رسخ علم الإنسان، لا بد أن يعرف أن ما أعطاه الله من العلوم قليل. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء/ ٨٥]، وينبغي أن يعرف أن فوقه من هو أعلم منه، وجميع العلوم إنما جاء من عند عالم الغيب والشهادة الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في العالمين، وهو أعلم بكل شيء من غيره. قال تعالى: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف/ ٧٦].

فلا بد من التواضع لله، ويعترف بأنه لولا هداية الله لما اهتدى أحد. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود/ ٨٨].

قوله رحمه الله: (**والحمد لله رب العالمين**) يدل على أن الله هو المحمود في كل شيء، وله الحمد في الأولى وفي الآخرة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإذا قيل: "الحمد كله لله" فهذا له معنيان **أحدهما**: أنه محمود على كل شيء، وبكل ما يحمد به المحمود التام، وإن كان بعض خلقه يحمد أيضا كما يُحمد رسله وأنبياؤه وأتباعهم، فلذلك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود بالقصد الأول، وبالذات. وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده، فهو المحمود أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً -إلى قوله:- **المعنى الثاني**: أن يقال لك الحمد كله أي الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة. ("طريق الهجرتين"/ ١ / ص ١٩٦).

قول المؤلف رحمه الله: (**وسلّم تسليمًا كثيرًا. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ**).

الشرح:

إن الله أمرنا بالصلاة على النبي فقال: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب/ ٥٦].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقرّبين، وأن الملائكة تصلي عليه. **ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه**، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا. ("تفسير القرآن العظيم"/ ٥/ ص٦٠٢/ دار الآثار).

ومن صلى على النبي ﷺ نال أجراً عظيماً. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات**». (أخرجه الإمام أحمد ((١١٩٩٨))/ الرسالة) وحسنه الإمام الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند" رقم (٨٩)).

قال المؤلف رحمه الله: (**وآله**). قال الإمام القرطبي رحمه الله: وكذلك آل الرسول ﷺ من هو على دينه وملته في عصره وسائر الأعصار، سواء كان نسيبًا له أو لم يكن. ومن لم يكن على دينه ومِلّته فليس من آله ولا أهله، وإن كان نسيبه وقريبه خلافًا للرافضة حيث قالت: (إن آل رسول الله ﷺ فاطمة والحسن والحسين فقط). دليلنا قوله تعالى: ﴿**وأغرقنا آل فرعون**﴾ [البقرة: ٥٠] ﴿**أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ [غافر: ٤٦] أي آل دينه إذ لم يكن له ابن، ولا بنت، ولا أب، ولا عمّ، ولا أخ، ولا عصبة. –إلى قوله:– ولأجل هذا يقال إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله، وإن كان بينهما وبين النبي ﷺ قرابة. ولأجل هذا قال الله تعالى في ابن نوح: ﴿**إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح**﴾ [هود: ٤٦]. ("الجامع لأحكام القرآن"/ ١ / البقرة: ١١/ ١/ ص٤٢٤/ دار الكتاب العربي).

وتعريف الصحابة: قال ابن حجر رحمه الله في تعريف الصحابي: وهو : من لقي النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مؤمنا به ومات على الإسلام ، ولو تخللت ردة ؛ في الأصح. والمراد باللقاء ما هو أعم من المجالسة والمماشاة ووصول أحدهما إلى الآخر وإن لم يكالمه، وتدخل فيه رؤية أحدهما الآخر، سواء كان ذلك بنفسه أو بغيره. ("نزهة النَّظَر"/ ١/ ص ٣١).

ثم تعريف السلام والسلامة كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. ("بدائع الفوائد" / ٢/ ص ٣٦١).

انتهى ما يسر الله من شرح هذه الرسالة النجدية المباركة

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والحمد لله رب العالمين.

دار الحديث بدماج، ٢١ رمضان ١٤٣٣ هـ

فهرس الكتاب

صورة إجازة رواية مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عبد الرقيب بين علي اليمني الكوكباني حفظه الله ٣

إجازة رواية مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عبد الرقيب بين علي اليمني الكوكباني حفظه الله ٤

صورة إجازة مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عادل بن أحمد بن علي شيخ – نزيل جازن– حفظه الله ٦

إجازة مؤلفات الإمام النجدي من فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عادل بن أحمد بن علي شيخ –نزيل جازن– حفظه الله ٨

مقدمة الشارح وفقه الله ١٠

الباب الأول: نبذة من ترجمة الإمام محمد النجدي رحمه الله ١٢

الباب الثاني: شرح الأصول الثلاثة ١٤

[أهمية البسملة] ١٤

[وجوب تعلم أربع مسائل] ١٦

[الدليل على أربع المسائل وتفسيره] ٢٣

[أهمية العلم قبل القول والعمل] ٢٧

[وجوب تعلّم ثلاث مسائل والعمل بهن] ٢٩

[حقيقة الحنيفية هي توحيد الله في العبادة] ٣٨

[وجوب معرفة أصول الدين الثلاثة] ٤٣

[معرفة العبد ربه عز وجل] ٤٥

[معرفة دين الإسلام، وفيه عبادة الله بجميع أنواعها] ٥٦

[معرفة نبينا محمد ﷺ] ١١٥

[كمال هذا الدين] ١٣٩

[البعث بعد الموت، وما يتعلق به بعد ذلك] ١٤٢

[دعوة الرسل عليهم السلام وحقيقتها] ١٤٦

[حقيقة الطاغوت وأنواعه] ١٥١

فهرس الكتاب ١٦٢